G H A Z I   A L - G O S A I B I

سيرة سيرة

غازي بن عبد الرحمن القصيبي

الوزير المرافق



AUTOBIOGRAPHY

غازي بن عبد الرحمن القصيبي

الوزير المرافق



الوزير المرافق

الوزير المرافق / سيرة
د. غازي عبد الرحمن القصيبي / مؤلّف من السعوديّة
الطبعة الأولى ، 2010



المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ،
ص. ب :5460-11 ، العنوان البرقي : موكيّالي ،
هاتفاكس : 751438 / 752308
التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان ، ص. ب : 9157 ، هاتف : 5605432 ، هاتفاكس : 5685501
E-mail : info@airpbooks.com
موقع الدار الألكتروني : www.airpbooks.com
التنفيذ والإشراف الفنّي :
®
صورة الغلاف : **المستشار الألمانيّ الأسبق (هيلموت شميدت) مع المؤلّف / الرياض ١٩٨٣م**
المصدر : المؤلّف
الصفّ الضوئيّ : **المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر / بيروت ، لبنان**
التنفيذ الطباعيّ : **ديمو برس / بيروت، لبنان**

ISBN 978-9953-36-103-7

JadidPDF.com

المحتويات

مقدمة

قلت في كتابي «حياة في الإدارة»[1] : «كانت هناك ، بين الحين والحين ، مهام تأخذ الوزير من دوامة العمل الروتيني اليومي . أبرز هذه المهام مرافقة الملك وولي العهد ، في الزيارات الرسمية ، ومرافقة رؤساء الدول الذين يزورون المملكة والمساهمة في المؤتمرات المختلفة» .

وخلال عملي في وزارة الصناعة والكهرباء والصحة ، كلفت بعدد كبير من هذه المهام . وفي هذا الكتاب فصول تحمل انطباعاتي الشخصية عن عدد من رؤساء الدول والحكومات أتيح لي أن أشاهدهم عن كثب ، من خلال مرافقتي للملك أو ولي العهد في زيارة لبلادهم أو من خلال زياراتهم هم إلى المملكة . وقد حرصت على أن تبقى الانطباعات كما دونتها أول مرة ، منذ سنين طويلة ، دون أن أحاول تصحيح أو تعديل ما كتبته في ضوء التطورات اللاحقة .

---

(١) غازي بن عبدالرحمن القصيبي ، **حياة في الإدارة** ، (بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، طبعة سنة ٢٠٠٠م) ص١٨٠ .

ما كان لهذا الكتاب أن يكتب لولا الملوك الكبار جلالة الملك خالد بن عبدالعزيز ، رحمه الله ، وخادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز ، رحمه الله ، وخادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز أمدَّ الله في عمره - ولهم جميعاً في قلبي من الحب والتقدير والامتنان ما لا يعرفه إلا الله عز وجل .

أرجو أن أكون صادقاً إذا قلت مستشهداً بالآية الكريمة عما كتبته هنا «وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين» .

البيت الأبيض... بين سيّدين

في المرة الأولى كان سيّد البيت الأبيض نيكسون . وفي المرة الثانية كان سيّده كارتر . كان نيكسون في الأسابيع الأخيرة من حكمه في صيف سنة ١٩٧٤م . وكان كارتر في الأسابيع الأولى من ولايته في ربيع سنة ١٩٧٧م . كان الفارق بين البيت الأبيض في المرة الأولى والبيت الأبيض في المرة الثانية كبيراً . وكان الفارق بين الرجلين هائلاً .

كان نيكسون يخوض معركة «ووترجيت» وقد وصلت الأزمة إلى أبواب محاكمته في مجلس الشيوخ . ولكنه كان يبدو في منتهى الثقة . وكذلك كان يبدو كل من حوله .

خلال حفل الغداء أكّد لي عضو مجلس الشيوخ الذي يجلس بجانبي :

- لا تصدّق أن مجلس الشيوخ سيعزل الرئيس . سوف تكون هناك محاكمة ولكنها لن تنتهي بعزل الرئيس . سوف يبقى الرئيس في منصبه حتى انتهاء فترته . إنني عضو في

مجلس الشيوخ وأعرف كيف يفكّر المجلس .

غير أن نيكسون استقال بعد هذا الحوار بأسابيع . لم يعد بوسع المؤرخين إلا التكهّن عن نتيجة المحاكمة في مجلس الشيوخ لو أنها تمّت .

قالت الصحافة عن رئاسة نيكسون إنها امبراطورية ؛ أي أنه كان يتقمّص في تصرفاته شخصية «الامبراطور» . والواقع أن هذه ملاحظة لا تخلو من صحة ، على الأقّل خلال تلك الفترة . كان يتكلّم بحساب ، ويشير بيديه بحساب ، ويحاول أن يضع بينك وبينه حاجزاً من الهيبة . في أول مرّة شاهدته فيها كان اللقاء لا يختلف كثيراً ، فيما أتصوّر ، عما كان يحدث ايّام الأباطرة .

كنّا في قاعة من قاعات البيت الأبيض نتناول المرطّبات قبيل حفل الغداء . ظهر رئيس البروتوكول في وزارة الخارجية الأمريكية وطلب منّا أن نقف في صف واحد حسب التسلسل البروتوكولي لأعضاء الوفد . بقينا مصطفّين كالجنود بضع دقائق حتى انفتح باب القاعة وظهر جندي ضخم يرتدي زياً مزركشاً وصرخ بصوت جهوري هزّ القاعة :

- سيداتي وسادتي! رئيس الولايات المتحدة!

ودخل «الامبراطور» يحف به الحرس والأعيان .

لا أدري لماذا تصوّرت -لحظتها- أن مدفعاً صغيراً في مكان ما من القاعة سوف يطلق إحدى وعشرين طلقة ، وأن تبدأ أوركسترا صغيرة مختفية تحت إحدى الطاولات بعزف «حيّوا

الزعيم»[٢] . غير أن شيئاً من ذلك لم يحدث بطبيعة الحال . تحرّك الرئيس عبر الصف البروتوكولي يصافح ، ويتكلّم بحساب .

كان نيكسون كما رأيته يختلف عن صورته كما تخيّلتها . ربّما كان عداء وسائل الإعلام الشهير له هو السبب . كان لونه وردياً ينبض بالصحة بينما كنت أتصوره ذا لون شاحب رمادي . كان أطول مما تصوّرت ، وأوسم مما تصوّرت ، ويبدو أذكى مما تصوّرت . حتى أنفه الشهير كان يتعايش مع بقية ملامحه في سلام لم تظهره عدسات المصوّرين ولا أقلام رسّامي الكاريكتير .

انتقلنا إلى قاعة الطعام . وفي نهاية الوجبة أشار بإصبعه إشارة تكاد تكون خفيّة . وفجأة أقفلت الأبواب . وامتنع الخدم عن الحركة . وساد الصمت . وظهر من مكان ما ميكرفون صغير أمام الرئيس . وألقى الرئيس خطاباً مرتجلاً جيداً عن المملكة . تذكّرت فيما بعد القصة التي رواها لي جميس ايكنز سفير الولايات المتحدة الأسبق في المملكة . قال إن نيكسون ، خلال زيارته للمملكة سنة ١٩٧٤م ، ألقى خطاباً طويلاً أثناء مأدبة العشاء ، خلط فيه بين مضيفه الملك فيصل وبين فيصل الأول ملك العراق . وأضاف إيكنز أنه لولا لباقة المترجم لحدث حرج

---

(٢) المعزوفة التي تواكب دخول الرئيس وخروجه في المناسبات العامة في الولايات المتحدة .

شـديد للضيف والمضيف . إلا أن أيكنز كان يكره نيكسون وكيسنجر كرهاً شديداً ينبغي معه أن نأخذ كل قصصه عن الاثنين مع شيء من الملح ، كما يقول التعبير الإنجليزي .

خلال الغداء التفت إليّ عضو آخر في مجلس الشيوخ وقال :

– لقد كنت في هذه القاعة نفسها قبل شهرين عندما أقام الرئيس حفل غداء تكريماً لشاه العراق .

– تقصد شاه إيران؟

– لا . لا . إنني أعرف الشاه محمد رضا بهلوي جيداً . وهو صديق عزيز لي . إنني أقصد شاه العراق .

– ولكن العراق ليس فيه شاه . ولم يكن فيه ، بحسب علمي ، شاه في أي يوم من الأيام .

– ولكنني رأيته بنفسي في هذه القاعة!

لم أشأ أن أطيل الجدل . قد يكون السبب أقداح النبيذ الأبيض التي كان عضو مجلس الشيوخ يحتسيها بشهية وبسرعة . ثم إن جهل عدد من أعضاء الشيوخ بالشؤون الدولية كان سراً يعرفه الجميع . تركنا شاه العراق وخضنا في شؤون الشاه الآخر .

في المرّتين كنت مع الأمير فهد . المرة الأولى باعتباره نائباً ثانياً لمجلس الوزراء ووزيراً للداخلية ، والمرة الثانية باعتباره ولياً للعهد ونائباً لرئيس مجلس الوزراء . كان هدف الزيارة الأولى إعطاء شحنة من الحرارة للعلاقات الأمريكية/ السعودية التي

توتّرت نتيجة الحظر البترولي خلال حرب رمضان ، خصوصاً بعد أن اتضح للعالم أجمع أن أهمية البترول في تزايد ، وأن أهمية المملكة في تزايد . جاءت الزيارة بمبادرة من الولايات المتحدة ، وكانت الدعوة في الأساس موجهّة إلى الملك فيصل . إلا أن الملك الذي سبق أن قام بزيارات رسمية عديدة لواشنطن أناب عنه الأمير فهد . وكانت أهم نتيجة تمخّضت عنها الزيارة إنشاء اللجنة المشتركة للتعاون الاقتصادي بين البلدين . أمّا الزيارة الثانية فقد جاءت بدعوة من الرئيس كارتر ، وكان هدفها أن تتيح للزعيمين الفرصة للتعرف ببعضهما البعض ولبحث المعضلة الشائكة في الشرق الأوسط .

خلال الزيارة الأولى كان كيسنجر نجم واشنطن الساطع الذي لم تزده فضيحة «ووترجيت» إلا تألقاً . كانت المباحثات الرسمية تدور معه ، وقد تولّى هو تشكيل اللجنة ورئاستها من الجانب الأمريكي ، وتولى الأمير فهد رئاستها من الجانب السعودي . وترك الإشراف المباشر على نشاطاتها لوزير الخزانة من الجانب الأمريكي ، ولوزير الدولة للشؤون المالية والاقتصاد الوطني من الجانب السعودي محمد أبا الخيل . كان كيسنجر كعادته كثير الدعابة . بدأ كلمته في حفل العشاء الرسمي الذي أقامه للأمير فهد بالقول :

- إنه لمن محاسن الصدف أن نجتمع أنا وسمو الأمير في واشنطن في يوم واحد .

وكان يشير إلى رحلاته «المكوكية» الشهيرة .

كما أنه بدأ جلسة المباحثات الرسمية بهذه الملاحظة :

- لعلك لاحظت يا سمو الأمير أن كل وزارة في أمريكا تقيم لنفسها وزارة خارجية مصغّرة ، وقسماً مصغراً للعلوم السياسية .

وابتسم الجميع عدا ضحايا الملاحظة : مندوبي وزارتي الدفاع والخزانة الذين كانوا يحضرون الاجتماع .

كنت قد تعرّفت على كيسنجر قبلها بسنوات ، وبالتحديد في صيف سنة ١٩٦٧م . كنت عضواً في ندوة هارفرد الدولية التي أنشأها كيسنجر وظلّ يديرها حتى مغادرته هارفرد . كانت الندوة تستقبل كل صيف أربعين ضيفاً من مختلف أنحاء العالم ، يفترض فيهم أن يكونوا من الشباب قادة الرأي والفكر ، حيث يقضون ستة أسابيع في هارفرد يناقشون خلالها المجتمع الأمريكي والعلاقات الدولية . وكانت الفكرة الأساسية أن مثل هذا اللقاء سيجعل الضيوف يفهمون الولايات المتحدة فهماً أفضل ويتصلون بعدد من مفكرّيها وقادتها في حوار ينفع الطرفين معاً .

كان من الواضح لأعضاء الندوة أن كيسنجر يتميّز بذكاء شديد وحيوية لا حدود لها ، وقدرة فائقة على السخرية من الآخرين ومن نفسه . غير أنني أصبت بخيبة أمل شديدة عندما دار النقاش حول الشرق الأوسط . كان ينظر إلى النزاع العربي الإسرائيلي من زاوية واحدة هي زاوية الحرب الباردة . وكان سعيداً لأن جمال عبدالناصر تلقّى درساً قاسياً سيجعل الآخرين يترددون قبل أن يتحدّوا الولايات المتحدة كما تحدّاها .

وكان يرى أن على الولايات المتحدة ألا تتدخّل لتنقذ «ناصر من نتائج حماقته» . وكان يرى أن على الدول العربية أن تتخلّص من النفوذ السوفيتي قبل أن تطمع في تدخل الولايات المتحدة كي تبحث عن تسوية للمشكلة[٣] .

عندما صافحته خلال الزيارة قال له الأمير فهد :

- هل تذكر الدكتور غازي؟ لقد كان عندك في هارفرد .

أشك كثيراً في أنه تذكّرني . لقد مرّ به عدد كبير من المشاركين في ندوة هارفرد . إلا أنه سألني :

- هل تجد آرائي اليوم مختلفة عن آرائي وقتها؟

- أعتقد أنها في الأساس لم تتغيّر ، خصوصاً موقفك من أن الولايات المتحدة لا يجب أن تسعى إلى حل للمشكلة ، إلا بعد خروج الاتحاد السوفيتي من الصورة .

كان الود الحميم بين السادات و«عزيزي هنري» قد بدأ يطفو . وسألته :

- ألا تعتقد أنه من غير المناسب الاعتماد الزائد على السادات؟

ألا تعتقد أن مركزه في بلده نفسها مزعزع؟ وكان الجواب دبلوماسياً :

- إنني لا أعرف سوى القليل عن شؤون مصر الداخلية ،

---

(٣) أثبتت الأيام فيما بعد انحيازاً واضحاً لكسينجر نحو إسرائيل . ولعلّ هذه النظرة الاستراتيجية لم تكن سوى شعار لتغطية عواطفه الحقيقية الصهيونية .

لماذا لا تخبرني أنت؟!

ولم أخبره . وانتقل يتحدّث إلى ضيف آخر .

كان نيكسون إمبراطور واشنطن إلا أن كيسنجر كان في حقيقة الأمر «نائب الامبراطور» . كان الجميع مبهورين بتصرفّاته وبكلماته وبنظرياته . أذكر أثناء حفلة العشاء التي أقامها لنا أن موظفين كبيرين في وزارة الخارجية الأمريكية كانا يتحدّثان في الطاولة التي بجانبي :

- يا الله! كم هو عظيم هذا العشاء! انظر إلى الذوق! انظر إلى الترتيب!

- هذه طريقة الوزير! إنه يتقن كل شيء! إنه يعمل كل شيء بروعة وبأسلوب فريد!

هذا كله في وصف حفلة عشاء عادية أعدّها متعهد أطعمة ، ولعلّ كيسنجر كان آخر من يعلم بتفاصيلها التي أذهلت الموظفين الكبيرين .

كان كيسنجر معتداً بنفسه وكان يشفع له ذكاؤه ومرحه . أمّا زميله وزير الدفاع شليسنجر فقد كان شديد الغرور دون أن يشفع له ذكاء أو مرح . لقد قابلت شليسنجر مرّتين : مرّة في واشنطن في ذلك الصيف ، ومرّة أخرى بعدها بأربع سنوات عندما زار الرياض كوزير الطاقة في عهد كارتر . وفي المرّتين لم أحسّ بأي احترام له ، ولا لما يقوله . كان يتكلّم ببطء وبعنجهية واضحة ، ويقف بين الفينة والفينة ليمتص غليونه ، وكان يتصرّف كما لو كان يدرس مجموعة من الأطفال المتخلّفين

عقلياً . عندما جاء إلى الرياض حمل معه اقتراحاً غريباً وأكاد أقول اقتراحاً جنونياً . اقترح أن تتولى المملكة على نفقتها الخاصة بناء المخازن المعدّة للاحتياطي الاستراتيجي البترولي في أمريكا . ثم تشحن البترول على نقفتها الخاصة إلى الولايات المتحدة لوضعه في هذه المخازن . ثم تبيع البترول للولايات المتحدة من هذه المخازن . وقد قال عن هذا الاقتراح العجيب إنه يضمن تدفّق البترول في حالة وقوع اضطّرابات تسدّ مضيق هرمز . ثم قدّم تبريراً غريباً غاية الغرابة . قال إن المخزون الاستراتيجي سوف يتيح للولايات المتحدة وللعالم الحر الحصول على البترول فيما لو كان هناك حظر نفطي ، وبالتالي فإن أي حظر نفطي لن يقابل بإجراءات عسكرية ، وبالتالي فإن بوسع المملكة أن تمارس حقّها في حظر النفط بكل اطمئنان! أي والله هذا ما قاله : تبني المملكة للولايات المتحدة مخزوناً استراتيجياً يمكّنها من عدم التأثر بأي حظر نفطي لكي تقوم المملكة بعد ذلك بممارسة حقّها في الحظر النفطي! كان وزراء البترول والمالية والتخطيط السعوديون موجودين في الاجتماع . عندما بدأ شليسنجر في شرح «نظريته» تبادلنا النظرات ونحن لا نكاد نصدّق آذاننا . ولقد حسدنا جميعاً الأمير فهد على سعة صدره وهدوء أعصابه ورباطة جأشه . فقد قال للوزير الأمريكي :

- هذه على كل حال فكرة تستحق الدرس والعناية . وسوف ندرسها ونخبركم بما يستقرّ عليه الرأي . ولا أظنني بحاجة إلى القول إن الفكرة ماتت بنهاية الاجتماع .

كانت هذه واشنطن نيكسون . امبراطور يصارع للبقاء على العرش . وأعوانه حوله يتصارعون على السلطة . ونجم رئيسي . ونجوم أصغر تدور في فلكه . إحساس بالثقة يكاد يكون مفرطاً . ولكنك تشعر أنه إحساس مصطنع . كان الجميع يدركون أن الامبراطور على وشك أن يجمع حقائبه ويرحل .

أمّا واشنطن كارتر فقد كانت ذات مذاق آخر . ليس هناك أباطرة ولا نجوم . استغلّ كارتر كره الأمريكيين لنيكسون والسمعة السيئة التي رافقت حكمه ، وجعل شعاراته الانتخابية «الحب» و«النزاهة» و«الصدق» . «أحبوا بعضكم بعضاً أيها الأمريكيون» . لا تكرهوا أنفسكم . أنتم شعب عظيم ولكن قيادتكم السابقة كانت منحرفة . أمّا أنا فسوف أكون مختلفاً . سأكون نزيهاً . سأكون صادقاً . ستكون إدارتي مفتوحة بلا أسوار ولا أسرار . انتخبوني أنا صديقكم «جيمي» . انتخبوني وسوف تتغيّر الأمور إلى الأفضل . كان يردد هذه الكلمات وكانت ابتسامته الكبيرة تلمع في كل مكان . وصدّق الأمريكيون . وأصبح «جيمي» سيد البيت الأبيض . حاول الرئيس الجديد أن يقنع الأمريكيين أنه مختلف عن سلفه . بدا في التيلفزيون وهو يحمل حقيبته بنفسه وأصرّ على أن يناديه الناس - كما كانوا ينادونه قبل الرئاسة «جيمي» .

في السيّارة من المطار إلى الفندق كنت أناقش هذه الظاهرة مع أحد مستشاري كارتر ، قلت :

- يجب ألا يفرط الرئيس في هذا الاتجاه . إن الشعب

الأمريكي يحيط الرئاسة بهالة كبيرة ليس من المناسب لأي رئيس أن يبدّدها مهما كان السبب .

- لكن هذا الرئيس يختلف عن كل من سبقوه . لقد أعددت بطلب منه بحثاً قانونياً وانتهينا إلى أن من حق الرئيس أن يوقّع باسم «جيمي» بدلاً من اسمه الكامل جيمس . وهذا ما يفعله الرئيس .

- ولكن الرئيس لا يجب أن يكون «جيمي» - بصرف النظر عن الناحية القانونية . يجب ألا يتخلّى الرئيس عن الوقار . إنه الآن يحاول أن يتصرّف كمواطن عادي ولكن الجميع يدركون أنه ليس مواطناً عادياً .

- على أية حال لقد انتخب الأمريكيون «جيمي» وسيظلّ رئيسهم يدعى «جيمي» .

- وماذا عن يخت الرئاسة؟ أليس من حق رئيس الدولة أن يروّح عن نفسه بين الحين والحين برحلة بحرية أو نهرية؟ لم يكن هناك مبرّر لبيعه .

- أعتقد أن الشعب الأمريكي ينفر من كل ما يبدو كامتداد لأسلوب نيكسون وطريقته في الحياة .

- وماذا عن نشيد «حيّوا الزعيم»؟ لماذا تخلّى عنه كارتر؟ أليس هذا تقليداً أصيلاً من التقاليد في الولايات المتحدة؟

- أتصوّر أن الأمور تغيّرت . أصبح الشعب الأمريكي يتوقّع البساطة المطلقة من رئيسه . أعتقد أن الرئيس قريب من نبض الشعب .

ربّما! إلا أن الرئيس غيّر من آرائه بمرور الوقت. بعد أن كان يفكّر في الاستغناء عن كامب ديفيد - المنتجع الجبلي المخصّص لاستراحة الرئيس - أصبح كامب ديفيد مكانه المفضّل (ولعلّها من مفارقات التاريخ أن ارتبط هذا الاسم ارتباطاً تاماً بإدارته دون غيرها من الإدارات). «حيّوا الزعيم» عادت لتواكب دخول الرئيس وخروجه. ومن يدري فلعلّ الحياء وحده هو الذي منع «جيمي» من تخصيص يخت جديد لنزهات الرئيس!

شعرت وقتها أن هذا الاندفاع إلى إرضاء الناس لا يليق برجل قوي الشخصية. وقد برهنت التجارب أن كارتر كان يفتقر إلى الشخصية القوية. كان حريصاً على إرضاء الجميع، مهما كانت مذاهبهم ومشاربهم، وقد انتهى به الأمر بإغضاب الجميع، من كل المذاهب والمشارب.

كنّا في قاعة من قاعات البيت الأبيض نتناول المرطبات قبل حفل العشاء عندما لمحت شخصاً ضئيلاً في بذلة زرقاء يعبر بهدوء من جانبي. وقد كانت دهشتي عظيمة عندما تبيّنت أن هذا الشخص لم يكن سوى الرئيس نفسه. دخل بسكوت دون أن يسبقه إعلان، ودون أن يرافقه حرس، ودون أن تشعر القاعة بدخوله. ومضى في القاعة ينتقل من مجموعة إلى مجموعة وهو يقدم نفسه ويبتسم ويضحك. قفزت إلى ذهني على الفور ذكرى اللقاء الأول مع نيكسون. شعرت وقتها أن هناك خطأ في النظرتين. كان نيكسون مفرطاً في استعراض

قوة الرئاسة وهيبتها وكأنّه كان يعوّض بقوة الرئاسة عن ثقته المتزعزعة . وكان كارتر مفرطاً في تواضعه وكانّه كان يشعر في أعماقه أنه قد وصل إلى منصب لا يستحقه ، وبالتالي لا يستحق ما يواكبه من مظاهر وهالات .

لا يبالغ المرء إذا قال إن كارتر كان يقضي في مكتبه وقتاً طويلاً يندر أن يستطيع رئيس دولة آخر أن يقاربه . لو أن مقياس النجاح كان العمل الشاق وحده لكان كارتر أنجح رئيس في تاريخ الولايات المتحدة . إلا أن للنجاح متطلّبات ليس العمل الشاق إلا واحداً منها . بل إن النجاح قد يرتبط بالضرورة بالعمل الشاق . القائد يحتاج إلى الشجاعة ، وإلى الرؤية الواضحة ، وإلى التوقيت الجيّد . ثم إن هناك - قبل هذا كلّه وبعده - عامل الحظ . وهذه كلّها أمور لا يستطيع القائد أن يستعيض عنها بالعمل الشاق .

خلال المباحثات الرسمية اتضّح بما لا يقبل الشك أن كارتر قد أدّى «واجباته المنزلية» - كما يقول التعبير الإنجليزي - وأدّاها بشمول وتعمّق . خلال المباحثات -وقد استغرقت عدّة ساعات- برهن كارتر على اطّلاعه الواسع على سائر أبعاد مشكلة الشرق الأوسط . لو كانت القدرة على حل المشاكل العويصة مرتبطة بالمعرفة وحدها لتمكّن كارتر من حل تلك المعضلة . كان يتحدّث بالتفاصيل الدقيقة ويعرف أسماء الأماكن ومواقعها على الخارطة . ورغم أنه كان محاطاً بمجموعة من كبار مساعديه ، مونديل نائب الرئيس ، وفانس وزير

الخارجية ، وبريجنسكي مستشار الأمن القومي وعدد من مساعديهم ، إلا أنه كان يتحدّث بمفرده . لم يجد أي حاجة إلى الاستعانة بهم أثناء الحديث ولم يشعروا بحاجة إلى التدخّل . كنت معجباً بتلك الطاقة التي مكّنت الرئيس الجديد أن يستوعب مشكلة عويصة كمشكلة الشرق الأوسط في هذه الفترة الوجيزة .

لم يستغرق بحث العلاقات السعودية/ الأمريكية سوى وقت قصير . كانت العلاقات الاقتصادية بين البلدين على خير ما يرام . أمّا العلاقات السياسية فكانت جيّدة ولكنها تدور تحت لغم موقوت : مشكلة فلسطين . كانت المباحثات في معظمها مكرّسة لمشكلة الشرق الأوسط . كان الأمير فهد حريصاً على إقناع كارتر بمبدأين : قبول فكرة الدولة الفلسطينية المستقلة والاعتراف بمنظمة التحرير . كان هذا هو المحور الذي دارت حوله كل المباحثات ، الرسمية منها والجانبية . من هنا فقد كانت خيبة أملي عظيمة عندما سمعت كارتر يعلن بعد هذا اللقاء بثلاث سنوات ، في غمرة الحمّى الانتخابية . «أن أحداً من الزعماء العرب الذين قابلهم لم يطالب بدولة فلسطين مستقلة»(٤) . لم أستطع ، حتى لحظة كتابة هذه السطور ، أن

---

(٤) في مذكراته اعترف كارتر أن القادة السعوديين كانوا الوحيدين الذين يقولون في العلن ما يقولونه له في المحادثات الخاصة ، الا أن الاعتراف أتى بعد أن أصبح مواطناً عادياً .

أغفر لكارتر هذا التجنّي الفظيع على التاريخ .

كان شبح «عزيزي هنري» يحوم ، كالبومة ، حول طاولة المباحثات الرسمية . قال كارتر :

- يا صاحب السمو . نحن لا نستطيع أن نتعامل مع منظمة التحرير ما لم تعترف أولاً بحق إسرائيل في البقاء . لقد كان هذا التزاماً أمريكياً مغلظاً تعهّد به الدكتور هنري كيسنجر وليس بإمكاننا التحلل منه .

- مع احترامي وتقديري للدكتور كيسنجر إلا أنه قد ذهب الآن بخيره وشرّه . ولا أعتقد أن من مصلحة الولايات المتحدة أن تظلّ إلى الأبد سجينة وعد قطعه ذات يوم الدكتور كيسنجر . إن الحكمة ليست حكراً على الدكتور كيسنجر . ولو أن فخامتكم تأمّلتم الموقف بحياد لوجدتم أنه بحاجة إلى نظرة منصفة جديدة .

ثم انتقل البحث إلى موضوع الدولة الفلسطينية . وكان كارتر متحفظاً إزاء الفكرة لأنه يخشى من تهديد أمن إسرائيل . كان الأمير فهد صريحاً :

- أي تهديد لإسرائيل؟! إذا كانت عشرون دولة عربية عاجزة عن تهديد إسرائيل فهل ستستطيع دولة ناشئة صغيرة أن تهدّد إسرائيل؟!

- ولكن الاتحاد السوفيتي قد يستغلّ الدولة الفلسطينية ويحوّلها إلى قاعدة عسكرية ضد إسرائيل؟

- وهل تمكّن الاتحاد السوفيتي من تحقيق ذلك عن طريق

أصدقائه من الدولة العربية الأقوى والأقدم حتى يتمكّن من تحقيقه عن طريق الدولة الفلسطينية؟

كان كارتر مصراً على إيجاد حل للمشكلة . وكانت نواياه طيبة . إلا أنه لم يستقّر على رأي نهائي . كان مؤمناً «بوطن قومي» للفلسطينيين ولكنه لم يؤيد فكرة «الدولة الفلسطينية» . كان يودّ للوطن القومي الفلسطيني أن يكون مرتبطاً على نحو أو آخر بالأردن .

وهنا أيضاً كان الأمير فهد في غاية الوضوح :

- يا فخامة الرئيس . الفلسطينيون يريدون وطناً فلسطينياً . وطناً خاصاً بهم . لا يريدون أن يكونوا جزأ من الأردن . أو من أي دولة عربية أخرى . ودعني أكن صريحاً معك ما لم تكن الدولة التي ستقام دولة فلسطينية خالصة فإن أي مجهود لإقامتها سيكون مجهوداً ضائعاً .

كانت الدولة الفلسطينية «لب» الزيارة كلها . ومع ذلك طلع كارتر فيما بعد بأكذوبته . والمؤلم أن هذه الأكذوبة الفاضحة قد صدرت من رجل وصل إلى سدّة الرئاسة لأنه وعد بقول الحقيقة ، ولا شيء سوى الحقيقة . غير أن للضرورة ، والضرورة هنا تعني اللوبي الصهيوني ، أحكاماً!

على مائدة العشاء كان الحديث شيّقاً وبعيداً عن تعقيدات السياسة . وكان هناك جو من المرح على طاولة العشاء التي لم تضم سوى الأعضاء الرسميين من الجانبين .

قلت لكارتر :

- يا فخامة الرئيس . لديّ اقتراح لحل مشكلة الشرق الأوسط لم يجرّبه أحد من قبل .

- ما هو؟

- إسمح لي بأن أتزوّج فتاة أمريكية يهودية . وفتاة أمريكية مسيحية . وبهذا سيحدث تفاهم يؤدي بمرور الأيام إلى إحلال الوئام في المنطقة .

ابتسم كارتر وقال :

- دعني أفكّر في الأمر فهناك جوانب قانونية للموضوع (يشير إلى أن القانون الأمريكي يمنع تعدّد الزوجات) .

وهنا تدخّل الأمير فهد :

- لا تصدق يا فخامة الرئيس . إنه لا يقول ولا يفعل . حتى لو سمحت له فإنه لن يجرأ على ذلك . إنه يحب زوجته ولن يتزوّج غيرها .

كانت حكاية الزوجتين مزحة عابرة في خضم الحديث . ولم يخطر ببالي أن كارتر سيذكرها ، أو يذكرني . كانت دهشتي بالغة عندما جاء كارتر إلى الرياض بعدها بأكثر من سنة واكتشفت أنه لم ينسني ولم ينس الحوار . كان أعضاء مجلس الوزراء في استقباله في المطار ، وكان يقف أمام كل منّا دقيقة أو دقيقتين في حوار سريع . عندما وصل إليّ قال :

- هل تذكر موضوع الزوجتين؟ إنني لا أزال أدرس الأمر .

- يا فخامة الرئيس . أرجو ألا تذكر ذلك لجلالة الملك خالد فإنه من أنصار الزوجة الواحدة .

- لا تخف . لن أذكر له شيئاً .

في اليوم التالي كنّا في وداعه . وعندما وصل إليّ قال مبتسماً :

- لقد قرّرت . إنني موافق . بإمكانك أن تتزوّج الفتاتين .

- شكراً جزيلاً!

لا شك في أنّها ذاكرة غريبة تلك التي استطاعت أن تحتفظ بجملة عابرة في حوار عابر رغم احتدام الأحداث الدولية والأزمات .

بعد العشاء خلا كارتر بالأمير فهد في الجزء العائلي بالطابق الثاني من البيت الأبيض . وقد أيقظ ابنته «إيمي» لتسلّم على الأمير . كان كارتر مولعاً بتقديم ابنته إلى الضيوف الرسميين . بل إن الأمر قد تطوّر فيما بعد عندما أخذت إيمي مقعدها في العشاء الرسمي الذي أقامه كارتر تكريماً لرئيس وزراء كندا . وقد أصبحت هذه العادة مادّة للتندّر بين الكتّاب الفكاهيين ورسّامي الكاريكتير في الولايات المتحدة ، ولعلّها كانت مصدر إزعاج للطفلة نفسها . إلا أن كارتر استمر حتى نهاية ولايته في تكليف أفراد عائلته بمهمّات رسمية . أرسل والدته العجوز التي قاربت الثمانين -مس ليليان- إلى أكثر من مناسبة دولية رسمية . وبعد اتفاقية كامب ديفيد أرسل برجنسكي ليشرح الاتفاقية للملك حسين ، وأرسل معه ابنه «شب» وكان شاباً لطيفاً خالي الذهن من السياسة وتعقيداتها . وقد ردَّ الملك حسين التحية بأحسن منها . دعا برجنسكي إلى العشاء معه . أمّا «شب» فقد دعي إلى

مأدبة أخرى أقامها أبناء الملك!

وما دام الحديث جرّنا إلى برجنسكي فلنقف عنده وقفة قصيرة . كان من الواضح أنه يريد أن يكون كيسنجراً جديداً . وكان من الواضح أنه لا يتمتّع بالدهاء الكيسنجري ولا بالثقة المطلقة التي تمتّع بها كيسنجر . قابلت برجنسكي لأول مرّة في البيت الأبيض في اجتماع جانبي قبل بدء المباحثات الرسمية . كان لا يكفّ عن الحديث وعن محاولة استعراض معلوماته . وكان يدلي بتعميمات غريبة مثل «البرتغاليون مسالمون بطبيعتهم» ، «الأسبان ميّالون إلى الخلاف بطبيعتهم» . . . وهلّم جراً . استغربت هذه التصريحات مثل هذه التعميمات عن «الشخصية القومية» لا يجب أن تؤخذ مأخذ الجد -أو على علاّتها- وخاصّة والمتحدّث أستاذ في العلاقات الدولية . إن الشعب ، أي شعب ، ظاهرة أشد تعقيداً من أن تنقاد للأحكام «البرجنسيكية» .

وكان لقائي الثاني ببرجنسكي في الجزائر بعد كامب ديفيد . كنت أمثّل المملكة وكان يمثّل الولايات المتحدة في الاحتفال بذكرى ثورة الجزائر . وخلال حفل الاستقبال وقفت معه أتبادل الحديث . وبدلاً من عبارات المجاملة التقليدية تحوّل الحديث إلى جدل عنيف :

- لماذا تعارضون كامب ديفيد؟

- لأنها تكرّس الاحتلال الإسرائيلي وتضفي عليه طابع الشرعية .

- ولكنها أعادت سيناء لمصر .

- بأية شروط؟ وبأي ثمن؟

- أنتم العرب لا تتكلّمون إلا بالشعارات . أربعون عاماً من الشعارات . لقد حقّق السادات في سنة واحدة ما عجزتم عن تحقيقه في أربعين سنة .

- لم يحقق السادات شيئاً سوى أنه اعترف بهزيمته أمام إسرائيل .

- أنت كباقي العرب . تتكلّم بالشعارات . ثم ماذا تتوقعون من الولايات المتحدة؟ لقد هزمتكم إسرائيل في ساحة القتال!

- إذن فأنت تعترف أن كامب ديفيد هي مجرّد تكريس للانتصار الإسرائيلي؟ ليتكم تقولون هذا الكلام صراحة . ليتكم تقولون للعرب إن الولايات المتحدة ستكون مع المنتصر وتكفّون عن هذا الحديث العقيم عن المبادئ والسلام .

وهنا توتّر الموقف . وتدخّلت سكرتيرة برجنسكي فوجّهت الحديث وجهة بعيدة عن السياسة ومزالقها .

خلال تلك الزيارة تعرّفنا على بقية أعوان كارتر ، مافيا جورجيا ، كما سمّتهم الصحف . كان ألمع هؤلاء مساعده هاملتون جوردان ، وقد كان مساعده الأيمن منذ الحملة الانتخابية التي جعلته حاكماً لجورجيا . كان جوردان وقتها في الثالثة والثلاثين ، مذهولاً بشبابه وبمنصبه وبالعالم الجديد . وقد رأيته مرة أخرى خلال زيارة تالية قمت بها إلى واشنطن . وقد بحثت معه عدداً من الموضوعات كان أهمّها الضجّة التي يثيرها

اللوبي الصهيوني بين حين وآخر حول قوانين المقاطعة العربية . كانت زوجتي معي خلال مطلع المقابلة . وقد استقبلنا وهو يرتدي قميصاً قصير الذراعين ومن دون ربطة عنق . كان المكتب يضج بالموسيقى الصاخبة . كان الديكور يذكّرك بغرف الطلبة الجامعيين في الأقسام الداخلية . وكان أول شيء فعله هو أن سحب مقعداً ومدّ عليه قدمه(٥) . في نهاية المقابلة قالت لي زوجتي مذهولة :-

- كيف يمكن أن يشارك مثل هذا الرجل في حكم أقوى دولة في العالم؟!

ولقد سبّب جوردان لكارتر الكثير من الحرج . فقد تفوّه بعبارات غير لائقة أمام زوجة السفير المصري . وقد قذف بكأس مليئة بالشراب في وجه إحدى السيّدات في حانة من حانات واشنطن . وقد أنفق الكثير من الجهد والمال ليثبت براءته مما نسب إليه من تعاط للكوكايين في مربع من مرابع الليل بنيويورك .

كادت زيارة الأمير فهد أن تؤدي إلى نصر تاريخي للقضية الفلسطينية . إلا أن الرياح لم تجر كما تشتهي السفن . قبيل الزيارة طلب ياسر عرفات من الأمير فهد أن يسلّم كارتر بحثاً مفصّلاً أعدّته قيادة منظمة التحرير يشرح القضية الفلسطينية .

---

(٥) في إحدى مقابلاته «للتايم» قال السادات : إنه معجب غاية الإعجاب بهذه العادة الأمريكية في مدّ الأرجل ، وللناس فيما يعشقون مذاهب!

وقد تسلمه كارتر بالفعل . وفي خلال اجتماعهما الثنائي في الجزء العائلي من البيت الأبيض ، فوجئ الأمير فهد بكارتر وهو يعرض اقتراحاً جديداً مثيراً .

- إنني أحاول كسر الجمود الذي يحيط بالقضية الفلسطينية . وأدرك أن هناك صعوبة تحول بيننا وبين الاعتراف بمنظمة التحرير ما لم تعترف الأخيرة بحق إسرائيل في البقاء . وأعرف أن هناك صعوبات تحول بين منظمة التحرير وهذا الاعتراف . لديّ اقتراح لحل المشكلة . تعترف منظمة التحرير بقرار (٢٤٢) وتتحفّظ على الجزء الذي يعتبر القضية قضية لاجئين . على أثر هذا سوف تعترف الولايات المتحدة بمنظمة التحرير ، ونعلن الاعتراف في الوقت نفسه في بيروت وواشنطن .

عاد الأمير فهد وهو يحمل هذه البشرى إلى ياسر عرفات . وأبدى عرفات سروره ودهشته في الوقت نفسه . وطلب بعض الوقت لتدارس الأمر مع رفاقه . بعد ذلك جاءت شروط جديدة وضعتها القيادة الفلسطينية ، وطلبت من الولايات المتحدة الموافقة عليها . وأدرك الأمير فهد أن الموضوع سوف يضيع بين الأخذ والرد ، خاصّة وأن اللوبي الصهيوني تنبّه إلى هذه المبادرة من جانب كارتر وحشد العدّة لمقاومتها . وبالفعل لم يتم شيء . ظلّ الأمير فهد بعدها بسنوات يشعر بالحسرة على الفرصة التاريخية التي أفلتت .

ظلّت العلاقات مع كارتر والأمير فهد قوية ومشوبة بالودّ من الجانبين . بذل كارتر جهده لإنجاح صفقة طائرات ف ١٥

للمملكة . وكان الأمير فهد حريصاً على ألا تؤدي سياسة المملكة البترولية إلى أوضاع اقتصادية تهدّد الولايات المتحدة وتحرج كارتر . ثم فترت هذه العلاقات بعد كامب ديفيد . ثم تدهورت تماماً بعد توقيع معاهدة الصلح الإسرائيلية / المصرية . شعر كارتر أن الأمير فهد تخلّى عنه برفضه تأييد اتفاقيات كامب ديفيد . ولم يكفّ عن محاولة التوسّط بين مصر والمملكة حتى آخر يوم من أيّام ولايته . ومن جانبه ، شعر الأمير فهد أن كارتر قد تخاذل أمام اللوبي الصهيوني وباع القضية الفلسطينية . وكان ضعف كارتر يتضّح مع مضي الوقت . كان رأي الأمير فهد فيه أنه «لا ينفع صديقاً ولا يضرّ عدواً» .

في مكان ما من قلبي شعور بالمودّة نحو هذا الرجل . ربّما لأنه كان أول رئيس أمريكي جرؤ على الحديث عن «وطن قومي فلسطيني» ربّما لأنه بدأ بداية طيّبة وحاول أن يكون موضوعياً ومنصفاً . وفي ذهني سؤال كبير يقفز كلّما تذكّرته : لماذا أراد هذا المزارع ذو القلب الطيّب والنيّة الصافية أن يكون رئيساً للولايات المتحدة؟!!

ومرّت الأيام وعاد كارتر إلى الرياض في ربيع سنة ١٩٨٣م كمواطن عادي . لم يكن معه -هذه المرّة- سوى زوجته وأستاذ من جامعة في جورجيا وأربعة من الحرس ، سبحان المعزّ المذل! في آخر مرّة جاء فيها كارتر إلى الرياض كان معه المئات . ذهب كارتر إلى الصحراء وتناول الغداء مع الملك فهد في مخيّمه . وفي المساء كان لي لقاء معه في قصر الضيافة . تحدّث عن

تنظيم ندوة عن الشرق الأوسط يحضرها مندوبون عن كل بلد عربي لشرح «الحقائق» عن الشرق الأوسط . وتحدّث عن التعاون في المجال العلمي عموماً -والطبي خاصّة- بين المملكة وبين المركز الطبّي بجورجيا .

على أنني كنت حريصاً على أن أستطلع رأيه عن تلك الفترة الحاسمة في تاريخ رئاسته ، فترة كامب ديفيد ، قال :

- لم تكن معاهدة كامب ديفيد انجازاً سهلاً -لقد تطلبّت الكثير من المجهود المضني- كانت بداية طيبة لو أتيح لها أن تستكمل . كان بيجن غير متعاون على الإطلاق . كان غير راغب في توقيع الاتفاقية . ولكنني ضغطتُ عليه ضغطاً شديداً . حتى إنني استعنت بكبار مستشاريه -من وراء ظهره- لأنجح في حمله على توقيع الاتفاقية . ولكنه للأسف حال توقيع الاتفاقية ، سلبها من كل معناها وجوهرها . شوّه الاتفاق عن المستعمرات الإسرائيلية وفسّره بالطريقة التي رآها . كما أنه تنصّل من كل التزاماته فيما يتعلّق «بالحكم الذاتي» . وخرج بنظرية غريبة غير التي اتفقنا عليها في كامب ديفيد . . .!

ساعتها تنفّست -بصمت- الصعداء! الحكم الذاتي -إذن- هو أسطورة ، كما عرف كل إنسان ذكي ، وكما يقول الآن صانع كامب ديفيد . ولم أشأ أن أحرج الرئيس ، وهو ضيف البلاد ، بسؤاله عن سبب تغاضيه من هذا الموقف الذي اتخذه بيجن من كامب ديفيد . واستطرد كارتر يقارن بين بيجن والسادات .

- السادات كان شخصية مختلفة تماماً . لم أجد أي صعوبة في التعامل معه أبداً . كان التعاون معه سهلاً للغاية على نقيض بيجن . وعلى خلاف ما يتصوّر البعض فإن السادات لم يتخلّ أبداً ، وحتى نهاية حياته ، عن مطالب العرب الأساسية .

أمّا أن كارتر لم يجد صعوبة في التعامل مع السادات فأمر يعرفه الجميع . وأمّا أن السادات لم «يتخلّ عن مطالب العرب الأساسية» فأمر فيه قولان - على الأقل!

- قلت : لقد سمعت أنك خلال زيارتك الأخيرة لإسرائيل اجتمعت اجتماعاً «عاصفاً» مع بيجن .

- في الواقع أن الاجتماع لم يكن عاصفاً ولكنه كان بارداً . لقد رفض بيجن أن يبحث معي أي موضوع سياسي على الإطلاق . تجاهل كل الأمور السياسية . على أية حال ، ربّما كانت هناك أسباب شخصية . فالرجل فقد زوجته مؤخراً . وربما كان الحديث عن كامب ديفيد يثير في نفسه ذكريات شخصية مؤلمة!

* لا يا فخامة الرئيس! إنه لا يضيّع وقته في الحديث عن الأمور السياسية مع رئيس سابق . إنه ليس عاطفياً كالعرب . هذا ما دار في ذهني - دون أن أقوله بطبيعة الحال .

واستطرد كارتر يقول :

- إن ما يجري في الأراضي المحتلة الآن أمر خطير . إن الإسرائيليين يضمّون الأراضي العربية جزءاً فجزأ . بعد قليل

لن يبقى في الضفّة المحتلة شبر واحد غير خاضع للسيادة الإسرائيلية . هذا أمر خطير للغاية . هذا أمر لا يعرفه الرأي العام لا في إسرائيل ولا في أمريكا .

في مأدبة العشاء التي أقامها ولي العهد الأمير عبدالله تكريماً لكارتر أعاد الكلام عن ضياع الضفّة الغربية . قال له الأمير عبدالله :

- هذا الكلام نحن نعرفه منذ زمن بعيد . وأنت الآن تعرفه ، لا يكفي أن تقوله لنا الآن ، يجب أن تقوله علناً للأمريكيين .

- سوف أفعل . صدّقني سوف أفعل .

كنت خلال الحديث بين ولي العهد وكارتر أتساءل : لماذا لا يدرك بعض الناس -وخاصّة- رؤساء الولايات المتحدة - الحقائق إلا بعد فوات الأوان؟!

مع سيّدة الهند الحديدية

«الأصل» يختلف تماماً عن «الصورة» ، لا أقصد «بالصورة» معناها الفوتغرافي المباشر ، ولكنني أقصد ذلك «الانطباع العام» الذي يتولّد في الأذهان عبر السنين عن طريق وسائل الإعلام المختلفة ، والصحافة بوجه خاص .

«الصورة» : امرأة قوية الشخصية ، متعطّشة للقوة ، شديدة الدهاء ، حديدية الإرادة ، قاسية القسمات ، لا حد لطموحها أو لعنادها . «الأصل» : امرأة في الرابعة والستين ، ضئيلة ضئيلة ، تتحدّث بصوت هامس لا يكاد يسمع ، لا يدلّ شكلها على إرادة عاتيه ولا يوحي مظهرها بأي تعطّش إلى السلطة . لا يملك المرء إلا أن يشعر بالشفقة على هذه المرأة ، التي تذكّره بأم حانية ، وضعتها الظروف موضع القيادة في أمة من سبعمائة مليون من البشر ، كلّهم يريدون الطعام والمأوى والتعليم وطيّبات الحياة؟

كانت زيارة أنديرا غاندي للرياض في ربيع سنة ١٩٨٢م فرصة للتعرّف على «الأصل» . كنت الوزير المرافق وقد أتيح لي أن أتبادل معها أحاديث طويلة عن موضوعات عديدة . في

البداية كانت تردّ بخجل وبتردّد . ثم أخذت تتحدّث بانطلاق . أشعر أحياناً أنها قالت لي ما لم تقله من قبل لمسؤول أجنبي ، أو لصحفي ، أو لكاتب!

- دولة الرئيسة! إنني أتعاطف مع مسؤولياتك الهائلة . ما هو شعورك وأنت تدركين تطلّعات سبعمائة مليون مواطن؟

- لو أن العدد وقف عند هذا الحد لكنت سعيدة بتحمّل العبء . ولكن المشكلة أنّهم يتزايدون يوماً بعد يوم . يتضاعفون بسرعة رهيبة . أيّام الاستقلال كان عدد السكّان نصف عددهم اليوم . ماذا عن المستقبل؟! لولا التفجّر السكّاني لكنّا حقّقنا المعجزات . أمّا الآن فكل منجزاتنا ضاعت مع زيادة السكّان .

وجرّنا موضوع تزايد النسل بالضرورة إلى برنامج «التعقيم» الذي طبّقته ، وكان السبب الرئيسي في هزيمتها في الانتخابات وفوز حزب جاناتا . وكان طبيعياً أن يثير الموضوع مشاعرها :

- إنّهم يكذبون! إنّهم يقولون عني أكاذيب رهيبة . زعموا أنني كنت أعقّم المواطنين بالقوّة . هذا ليس صحيحاً . كان البرنامج اختيارياً . لم يجبر أحد على التعقيم ضد إرادته . لقد وضعوا جائزة مغرية لأي مواطن يتقدّم ويخبرهم أنه أجبر على قبول التعقيم ولكن أحداً لم يتقدّم . أنا لا أنكر أنه قد يكون هناك من تقدّم للبرنامج طمعاً في الحصول على الحافز النقدي الذي كنّا نقدّمه لكل متطوّع . غير أن هذا شيء والادّعاء أن التعقيم كان إجبارياً شيء آخر . كل ما أشيع عن هذا الموضوع هو دعايات مضلّلة وكاذبة .

برنامج التعقيم نجح ربما في تعقيم المئات من الآلاف . في بلد كالهند لا يمثّل هذا العدد سوى نقطة في بحر . يبدو لي أن السيدة لو أتيح لها أن تعيش الماضي مرّة أخرى لما أقدمت على هذا البرنامج ، خصوصاً وهي تدرك تماماً أن التغيير الاجتماعي لا يمكن أن يفرض عن طريق السلطة . في هذا الموضوع قالت :

- لقد كانت الرغبة في فرض التطوّر غلطة الشاه الأساسية . وكانت غلطة أتاتورك قبله . لقد تصوّروا أن التغيير يمكن أن يتم بقرار حكومي . هذه نظرة خاطئة . الناس أنفسهم هم الذين يحدّدون سرعة التغيير ولا يمكن أن تفرض عليهم الدولة أن يتغيّروا حسب هواها .

وأخذت السيدة الضئيلة تروي لي المشاكل التي تواجهها نتيجة انخفاض الوعي عند جماهير الهند الغفيرة :

- لقد أثارت المعارضة المزارعين . زعمت لهم أن توليد الكهرباء عن طريق مساقط المياه يسلب من الماء «روحها» ويجعلها غير نافعة للزراعة . عندما قيل لي إن المعارضة تثير المزارعين بهذا الكلام ، ضحكت وقلت «من سيصدّق هذا الهراء؟!» . كم كانت دهشتي عظيمة عندما قمت بجولة في القرى . في كل مكان كان السؤال يلاحقني «لماذا أخذتم «روح» الماء وتركتموها بلا «بركة»؟» كم كان صعباً أن نشرح الحقائق . إن هذه نظرة لا مسؤولة عن المعارضة . نظرة هدّامة . كثيراً ما أتصوّر أن لدينا «ديمقراطية زائدة عن الحد» في الهند .

هذه «الديمقراطية الزائدة عن الحد» هي التي أبقتها في

الحكم من سنة ١٩٦٦م إلى سنة ١٩٧٧م . وأخرجتها تلك السنة . ثم أعادتها بعد أربع سنوات .

- دولة الرئيسة! كيف كان شعورك وأنت خارج الحكم؟

- قد لا تصدّق . لا أحد يصدّق . شعرت أن حجراً ضخماً قد أزيح عن صدري . تنفّست الصعداء . قلت لنفسي لقد حان الوقت الآن للراحة . طلبت من ابني سانجاي أن يبحث لي عن منزل صغير في منطقة جبلية . إنني لم أذق طعم الراحة منذ طفولتي . شعرت أن الأوان قد آن لكي أستقرّ . كنت على وشك الرحيل من نيودلهي . ولكنهم لم يتركوني . أقاموا عليّ عشرات الدعاوى القضائية في عشرات الولايات . قال لي المحامون إن خروجي من نيودلهي في تلك الظروف قد يفسّر على أنه اعتراف بالذنب أو تهرّب من المسؤولية . نصحوني بالبقاء . اضطررت إلى المثول أمام المحاكم . كانت القضايا مضحكة . تصوّر أنه في إحدى الولايات أقيمت عليّ قضية بتهمة أنني سرقت خمس دجاجات وست بيضات . واستدعتني المحكمة . كانت هناك قضية مضحكة أخرى . أيّام كنت في الحكم اتصل إنسان بأحد البنوك وقال لمدير البنك إن رئيسة الوزراء تطلب منك على الفور وبطريقة سرّية مائة ألف روبية . . وسأحضر الآن لاستلامها . وصدّق مدير البنك وذهب الرجل واستلم المبلغ . ثم أخبرني مدير البنك . فلمته على تصرّفه وعلى تصديق قصّة غريبة كهذه . وتم القبض على المحتال . وأعيد المبلغ في وقتها . ثم أقيمت عليّ قضية بتهمة

أنني احتفظت بالمبلغ لنفسي . المبلغ نفسه الذي أعيد فوراً إلى البنك . لم يكن أمامي خيار سوى البقاء . وجدت أن حزب الكونجرس يتمزّق وينهار ويمنى بفشل بعد فشل . رأيت أن مسؤوليتي تتطلّب مني أن أبقى . وأحارب . وبقيت . وحاربت . وكان ما كان .

الواقع أنني تنبأت أن إسراف المعارضة في الهجوم عليها سيؤدي إلى تعاطف الناس معها . قبل ثلاث سنوات أرسل رئيس الوزراء ديساي وزير الصناعة الهندي برسالة إلى حكومة المملكة . وقابلت الوزير الذي قضى في المملكة ثلاثة أيّام . كان قبل الوزارة رئيساً لنقابات السكك الحديدية . وكان رجلاً مغروراً إلى درجة رهيبة . قلت له :

- أنتم الآن في الحكم . لماذا تتصرّفون كما لو كنتم في المعارضة؟ إن أنديرا غاندي ذهبت بخيرها وشرّها . لماذا هذه الحملة القاسية عليها وعلى أسرتها؟ إنّكم بهذا سوف تجنون على أنفسكم وسوف توجدون لها شعبية جديدة .

إلا أن الوزير لم يقتنع وصحّ ما توقعته .

لاحظت أن صوتها يرتعش ارتعاشة خفيّة كلما مرّ، ذكر سانجاي ابنها الذي توفّي قبل زيارتها المملكة بسنة في حادثة طائرة .

- دولة الرئيسة! أرجو أن تتقبّلي عزائي المتأخّر في وفاة ابنك . كان البعض يعتقدون أن موته سيكون الصدمة القاضية عليك .

بدأت الملامح تشح بغمامة من الكآبة . هل هناك دموع خلف النظّارة ، أم أنني أتخيّل أشياء؟ ندمت على إثارة الموضوع ، صمتت قليلاً ثم تكلّمت :

- أشكرك ، كانت صدمة بالفعل ولكنني أفقت منها . سانجاي كان مليئاً بالحياة . كان مليئاً بالحياة . كان موجة من الحبور والمرح والضحك والسعادة . وكان أيضاً مقاتلاً عنيداً . لقد افتقدته كثيراً . ولكنني أفقت من الصدمة .

- يروون يا سيّدتي قصصاً غريبة عن أرملته مانيكا وعلاقتك معها!

هنا بدأت تتحدّث بانفعال وحيوية . طيلة الزيارة لم أرها تتحدّث بهذه الحدّة ، وبهذه السرعة ، وبهذه الطريقة العاطفية . نسيت -لحظتها- أنني أمام رئيسة وزراء دولة من أكبر دول الأرض . تصوّرت أنني مع أمّ عاديّة في الحي تشكو متاعبها مع زوجة ابنها .

- هذه المرأة! هذه المرأة الكريهة! هذه المرأة الفظيعة! إن مشاكلي معها لم تبدأ بعد موت سانجاي . بل بدأت مع بداية زواجه بها . مشاكل طيلة الوقت . لا أدري لماذا تزوّج سانجاي «هذه المخلوقة» . مشكلة سانجاي أنه كان مشغولاً بهواياته ونشاطاته وطموحاته عن النساء . لم يكن يدخّن ، أو يشرب ، أو يرقص . قلت له أكثر من مرّة إن عليه أن يتعرّف على فتيات . كنت أخشى أن يقع -فجأة- في براثن امرأة سيئة . وهذا ما حدث . ليته تزوّج الفتاة التي اخترتها له . كانت فتاة

ممتازة من عائلة طيّبة كريمة . ولكنه لم يختر إلا «تلك المخلوقة» . رآها في حفلة زواج وهام بها من أوّل نظرة . كان في الرابعة والثلاثين وكانت هي في الثامنة عشرة .

- هل كانت جميلة؟

- جميلة؟ لا . لا . إنها عادية تماماً . صحيح أنها تستطيع أن تكون «جذّابة» عندما تريد ولكنها ليست جميلة على الإطلاق . لقد بدأت مشاكلي معها منذ اليوم الأوّل . كانت ترفض أن تعاونني في أعباء المنزل . ترفض أن تطبخ . أو تقوم بأي عمل منزلي . ابني الآخر راجيف تزوّج فتاة إيطالية اسمها سونيا . جوهرة بالنسبة «لتلك المخلوقة» التي لم تستطع أن تعيش مع العائلة . كانت تعتقد أنني أحاول الاستئثار بسانجاي . لم تتفهّم الوضع . كنت مشغولة طيلة الوقت . وكان بدوره مشغولاً طيلة الوقت ، ولم تكن هناك محاولة مقصودة لإبعادها . في الهند على الزوجة أن تتأقلم مع أسرة زوجها وليس العكس . لكنها لم تتأقلم . كانت دائمة الشكوى . دائمة التأفف . إذا أخذتها معي في مناسبة رسمية اشتكت من الإرهاق . إذا لم آخذها معي قالت إنني أتجاهلها عمداً . لقد نشرت عنّي أكاذيب رهيبة . نقلتها إلى المعارضة وإلى الصحف . قالت عنّي ما لا يقال . كانت على اتصال وثيق بالمعارضة .

وصلتني تقارير من الجهات الأمنية تقول إن بقاءها بجانبي كان يشكّل خطراً على حياتي ؛ لأنّها كانت على اتصال

بعناصر كانت تحاول اغتيالي . أدرك سانجاي غلطته ولكن بعد أن فات الأوان . إنّها لا تزال تنشر عنّي الأكاذيب . زعمت أنني حاولت اللجوء إلى السفارة الإيطالية . هذا ليس صحيحاً . كل ما في الأمر أنني طلبت من سونيا أن تحيط السفير الإيطالي علماً بما كان يدور أيّام كنت خارج الحكم . كنت أخشى أن يحدث لي شي . أن يقتلوني . كنت أريد أن يعرف العالم كلّه الحقيقة .

هل هذه «الحماة» المنفعلة التي تتحدّث عن مشاكلها المنزلية كأي قروية عجوز في أقصى قرى الهند هي السيّدة نفسها التي فرضت «قوانين الطوارئ» للقضاء على أية معارضة؟!

أعود بها مرّة أخرى إلى حديث السياسة . أطلب منها أن تروي لي كيف دخلت امرأة في بلد شرقي مسرح السياسة .

- قالت : كنت منذ البداية مشغولة مع والدي . توفّيت والدتي وأنا صغيرة . فاضطررت إلى أن أتولّى مسؤولياتها المنزلية في سن مبكّرة . كنت خجولاً للغاية . كنت أقول لوالدي «سوف أعدّ كل ما تحتاجه أنت ويحتاجه ضيوفك ثم أتوارى عن الأنظار قبل قدومهم» ، كنت أخجل من لقاء الناس . لا زلت ، في قرارة نفسي ، خجولاً حتى الآن . كان والدي يرفض . يصرّ أن أقابل الناس . اضطررت إلى مقاومة نزعة الحياء الطبيعية عندي . أعتقد أنني نجحت في ذلك إلى حد كبير . كنت بجانب أبي طيلة الوقت ولكني لم أفكر في

احتراف السياسة . حصل هذا دون تخطيط مني . ذات يوم من أيّام سنة ١٩٥٥م قدم رئيس الحزب إلى منزلنا وكنت مريضة بالإنفلونزا . وكان أبي مسافراً . وطلب أن يقابلني . اعتذرت بالمرض . ولكنه أصرّ على مقابلتي . قال لي إنه قرّر ضمّي إلى اللجنة المركزية للحزب . اعتذرت . ثم طلبت مهلة للتفكير . ثم طلبت منه أن يستشير والدي . ولكنه رفض . رفض الاعتذار ورفض المهلة ، وقال إن والدي لا علاقة له بالأمر . وهكذا وجدت نفسي عضواً في اللجنة المركزية للحزب . منذ ذلك تلقّفتني دوامة الحياة السياسية .

- أرجو أن تحدّثيني عن أيام نهرو الأخيرة .

- عندما توفّي كان في الخامسة والسبعين . كان قد أصيب بجلطة خفيفة في الدماغ ولكنه كان يقوم بواجباته كاملة . لم يكن بطبيعة الحال على سابق عهده من الحيوية ، ولكنه لم يجد أي صعوبة في ممارسة مسؤولياته .

- وماذا حدث بعد وفاته؟

- اجتمع الحزب وانتخب شاستري رئيساً للوزراء . جاءني شاستري وقال لي إن المصلحة الوطنية تتطلّب دخولي الوزارة كرمز لاستمرار مبادئ نهرو . رفضت . ولكنه أصرّ . طلبت وزارة التعليم ولكنه أراد أن أتولّى وزارة الخارجية . غير أنني رفضت وزارة الخارجية . كنت أنظر إلى المنصب على أنه مؤقت بطبيعته وخشية أن تتحوّل مهمّتي في الخارجية إلى مهمة دائمة . ثم استقرّ الأمر على وزارة الإعلام . طلبت منه أن يؤجّل القرار لمدة

ثلاثة شهور . ولكنه أذاع النبأ في الليلة نفسها . ثم توفّى شاستري . وتوالت الأحداث . وأصرّ الحزب على أن أتولّى رئاسة الوزارة . وهذا ما كان .

هناك دائماً «إصرار» و«اضطرار»! كأن السيّدة تحاول أن تقول إنها تحكم رغماً عن إرادتها!

– دولة الرئيسة! هناك أسئلة في ذهني عن المهاتما غاندي . لقد قرأت مقالات لمفكّرين هنود يزعمون فيها أن بعض آراء غاندي كانت غير منطقية ورجعية ، وعلى الخصوص ما أظهره من عداء للتقنية الحديثة . إنّهم يزعمون أنه لولا هذه الآراء لكانت الهند الآن دولة متقدّمة تقنياً في كل المجالات .

– لا! لا! هذا ليس صحيحاً . كان غاندي قريباً كل القرب من نبض الشعب الهندي . كان يعرف بفطرته طبيعة الشعب . بدون أسلوب المقاومة ، بدون عنف ، الذي اتبعه كان من المستحيل أن تستقلّ الهند . لم يكن لدينا أي نوع من أنواع الأسلحة . لم يكن بالإمكان أن ندخل مجابهة عسكرية مع بريطانيا – لولا غاندي لما تمّ الاستقلال . كان الاستقلال إنجاز غاندي الأعظم .

– يروي أولئك الكتّاب قصصاً غريبة عن غاندي . يقولون إن سفره بالدرجة الثالثة كان يكلّف الدولة أضعاف أضعاف التكلفة لو أنه سافر في مقصورة خاصّة في الدرجة الأولى .

ترتسم ابتسامة خفيفة على الفم الرقيق :

– هذا صحيح! كانت أجهزة الأمن تضطرّ إلى أن تخلي

الدرجة الثالثة بأكملها من كل الركّاب. كان من الأسهل والأرخص أن يسافر في مقصورة خاصّة. علاوة على هذا، كان غاندي يصرّ على أغذية «بسيطة» أينما يذهب. صحيح أن هذه الأطعمة كانت «بسيطة» ولكنها قد لا تتوفر دائماً. كنّا جميعاً نشعر بالقلق عندما ينزل غاندي ضيفاً في بيتنا. كنت نخشى أن يتعذّر الحصول على الطعام الذي يصرّ عليه. نظرتي إلى البساطة تختلف عن نظرة غاندي. نظرتي أن آكل أي طعام متوفّر سواء كان عادياً أو ممتازاً. وأستعمل أي سكن سواء كان متوسّطاً أو فاخراً. أمّا غاندي فقد كان يصرّ على طعام بعينه ويسبّب الكثير من المشاكل لمضيفيه.

- سيّدتي! آسف إذا كان هذا السؤال محرجاً! ولكنني قرأت مرّة أن غاندي كان يصرّ على النوم وبجانبه فتاتان جميلتان عاريتان. هل هذا صحيح؟!

شبح الابتسامة مرة أخرى:

- لقد كان هذا خلال فترة من فترات حياته. عندما قرّر أن يعتزل الجنس نهائياً. أراد أن يثبت أن بوسع المرء أن يقاوم النزعة الجنسية رغم الإغراء الشديد. لا شكّ في أن هذا كان تصرفاً غريباً. بإمكان المرء أن يعتزل الجنس دون أن يحوّل هذا الموضوع الشخصي إلى قضية كبرى أمام الرأي العام. في الواقع كان غاندي لا يخلو من تصرفّات غريبة. ثم إنه كان محاطاً بمجموعة عجيبة من الناس ضربت حوله حصاراً واستغلّت اسمه. لا أدري كيف سمح لهذه المجموعة أن تحيط به.

- يقولون إن القائد الفعلي للحزب كان نهرو بينما كان غاندي يملك ولا يحكم .

- كانت القيادة جماعية في الحقيقة . جماعية بمعنى الكلمة . كان هناك عدد من القادة . كل منهم يختلف عن زميله في مزاجه وثقافته وشعبيته . ولكنهم كانوا جميعاً يشعرون بولاء مطلق لغاندي . كان أبي واحداً منهم . ولكنه كان أقرب القادة إلى قلوب المثقّفين ودعاة التطوّر والتفكير الليبرالي . كانوا يعتبرونه واحداً منهم .

في وزارة التخطيط . استمعنا إلى شرح مسهب عن الخطة الخمسية السعودية الثالثة . كانت أنديرا غاندي تستمع بيقظة وتدوّن بعض الملاحظات . بعد انتهاء الشرح تحدّث وزير المالية الهندي عن الخطة الخمسية الهندية . كنت أتوقّع أن تتحدّث هي . أو تسأل . أو تناقش . أو تنصح . ولكنها لم تفعل . اكتفت بالتدخّل مرة أو مرتين خلال حديث وزير المالية . قالت إن عدد الطلبة في الهند يبلغ (١٠٦) ملايين طالب وطالبة . نظرت إلى هشام ناظر وزير التخطيط . ونظر إليَّ . وابتسمنا . قال هشام :

- يا دولة الرئيسة! نحن في المملكة فخورون بأن لدينا مليوناً ونصف المليون طالب وطالبة . ولديكم أنتم أكثر من مائة مليون . لقد جعلتمونا نخجل من إنجازاتنا . ومن مشاكلنا الصغيرة .

كنت أتوقّع نقاشاً صاخباً مثيراً عن التنمية مع الزعيمة التي خاضت غمار التنمية عدّة عقود في أكبر دولة نامية .

كنت أتوقّع أن أتعلم بعض الدروس . بعض العـبـر . بعض الحكم . كنت متعطشاً إلى نقاش فكري . غير أنها لم تناقش . وشعرت بخيبة الأمل . ألا يوجد درس واحد يستفاد من تجربة الهند التنموية؟! ألا توجد نصيحة واحدة؟! ربّما كان الخجل هو الدافع وراء سكوتها .

تكرّرت خيبة أملي في المباحثات الرسمية . ربما كان هذا الحكم قاسياً بعض الشيء . ولكن عندما يجتمع المرء بزعيمة عاصرت أهواء السياسة وأعاصيرها قرابة أربعين عاماً واجتمعت بكل قادة العالم البارزين ، يتوقّع شيئاً غير مألوف ، شيئاً غير عادي .

ألمح الأمير فهد إلى هذا في كلمته الترحيبية .

- يا دولة الرئيسة! إننا نعتبرك من أبرز الشخصيات الدولية المعاصرة . لقد مرّت بك تجارب طويلة واكتسبت حكمة عميقة وخبرة كبيرة . إننا نتطلّع إلى الاستفادة من آرائك .

شكرته بخجل . وبدأت في الحديث . وكان حديثاً عادياً . لا يحسّ المرء وهو يستمع إليه أن وراءه خبرة سياسية تكاد تبلغ نصف القرن!

كانت حريصة على توضيح علاقة الهند بالاتحاد السوفيتي ، وعلى التأكيد أن الهند صديقة للاتحاد السوفيتي ، ولكنها ليست مجرّد دولة تابعة . أعربت عن أسفها لاحتلال أفغانستان وأضافت :

- صحيح أننا لم ندن العدوان كما أدانه الآخرون . هناك

سبيان وجيهان . أولاً ، أن القوات السوفيتية لم تدخل البلاد غازية ولكنها دخلتها بطلب رسمي من الحكومة الأفغانية القائمة . ثانياً ، أن أي انتقاد عنيف للاتحاد السوفيتي لن يدفعه إلى الانسحاب . على العكس مثل هذا الانتقاد سيجعله يشعر أنه محاصر ويدفعه إلى أن يتعنّت أكثر وأكثر .

بعد ذلك تحدّثت عن حوار الشمال والجنوب . عن حرب إيران والعراق . عن مشكلة الشرق الأوسط . عن ضرورة ، ايجاد نظام اقتصادي دولي جديد . ولكنها لم تأت بجديد . أو مثير .

قالت للأمير فهد إنها أحضرت معها فيلاً صغيراً - كهدية من أطفال الهند إلى أطفال المملكة . وشكرها الأمير . وقال إنه بدوره يهدي أطفال الهند «جملاً عربياً» و«حصاناً عربياً أصيلاً» .

طيلة المباحثات لم تشر من قريب أو بعيد إلى العلاقات الاقتصادية بين المملكة والهند . لم تطلب قرضاً ، ولم تطلب مساعدة ، ولم تتحدّث عن اختلال الميزان التجاري . لقد جاءت زعيمة الهند إلى المملكة لكي تناقش وتبحث لا لكي تطلب مساعدة . أكبرت فيها هذا الموقف . تمنّيت لو كان كل زوّارنا مثلها . تذكّرت الحرج الذي يحيط بالمباحثات كلّما زارنا رئيس دولة يصرّ على أن يعود إلى بلاده «بنتائج ملموسة»!

بعد مأدبة العشاء التي أقامها الملك خالد قالت لي في السيّارة :

- الطعام لذيذ. وقد أكثرت منه. قبل أن أبلغ الخمسين كنت نحيفة إلى درجة مرعبة. كنت أحاول بكل وسيلة أن أسمن قليلاً. أمّا بعد الخمسين فقد انعكست الآية. أصبحت أخشى السمنة. إنني الآن أخصّص يومين في الأسبوع لا أتناول فيهما شيئاً سوى الفاكهة.

حقيقة الأمر أنها لا زالت نحيفة. وإن لم تكن نحافتها مرعبة. إلا أن هذه الأمور نسبية.

في الطريق إلى المطار كان الأمير فهد مع رئيسة الوزراء. وكنت في السيّارة الثانية مع ابنها «راجيف». لقد أصبح راجيف بعد وفاة أخيه «ولي العهد». تحوّل من قائد طيارة إلى سياسي وعضو بارز في البرلمان. سألته:

- كيف تجد حياتك الآن؟

لقد تغيّرت الأمور تغيّراً جذرياً. عندما كنت طيّاراً كنت أعمل ثماني ساعات في اليوم وينتهي الأمر. أمّا الآن فعمل لا ينتهي. طيلة النهار وطيلة الليل.

راجيف شاب دمث الأخلاق. لا يخلو من قدر من الذكاء الموروث. أمّه تعامله كما لو كان طفلاً صغيراً. طلبت منه مرّة أن يرتدي المعطف «كيلا يصاب ببرد». إلا أن معلومات راجيف عن التنمية والديمقراطية أيامها لا تختلف، كثيراً، عن معلومات أي طيّار!

- لدينا في الهند «ديمقراطية زائدة عن الحدّ»، هذه هي مشكلتنا الحقيقية. هذه هي المشكلة الكبرى.

هل سيصبح راجيف ذات يوم رئيساً لوزراء الهند ، كأمّه وكجدّه؟

علم هذا عند ربّي - وعند «الديمقراطية الزائدة عن الحد»!

في المطار كانت السيدة الضئيلة تصافح مودّعيها . وتوقّفت عندي قليلاً .

- أشكرك كثيراً . لقد سعدت بلقاء زوجتك البارحة .

وارتقت سلّم الطائرة . بدأت الأم الطيّبة تتلاشى - مع كل درجة من السلّم . في نهاية السلّم لم تكن هناك عجوز رقيقة . كانت رئيسة وزراء الهند هي التي تقف منتصبة على مدخل الطائرة . وتلوّح بتحية الوداع .

مع المجاهد الأكبر

كنت أتمنى أن أقابل الرئيس الحبيب بورقيبة ، زرت تونس ، للمرّة الأولى ، سنة ١٩٧٧م . وزرتها ، للمرة الثانية ، سنة ١٩٧٩م ولم يتح لي أن ألقاه . في المرّة الأولى كان يستشفي في ألمانيا . وفي المرة الثانية كان في تونس ولكنه كان مختفياً عن الأنظار يمرّ بحلقة من مسلسل «مرضه» الشهير . كنت حريصاً على أن أراه وأتكلم معه وأراقبه عن كثب . فالرجل ، بصرف النظر عن رأيي أو رأي أي إنسان آخر فيه ، لعب دوراً مهماً في تاريخ تونس وفي التاريخ العربي الحديث . لهذا فقد كانت سعادتي بالغة عندما أخبرني مضيفي الأستاذ عبدالعزيز الأصرم وزير الاقتصاد التونسي ، خلال زيارة رسمية قمت بها إلى تونس في ربيع سنة ١٩٨٢م ، أنه حدّد لي موعداً للسلام على الرئيس .

قال لي الوزير التونسي إننا سنذهب إلى الرئيس في الواحات ، وإننا سنستقلّ طائرة صغيرة ذات خمسة مقاعد ، ورجاني ألا يزيد عدد أعضاء الوفد الذين معي على اثنين . يبدو أن الحديث عن الطائرة الصغيرة أرعب أعضاء الوفد وهم

جميعا من المؤمنين بنظرية شوقي في الطائرة :

أركب الليث ولا أركبـهـا

وأرى ليث الشرى أوفى ذماما

بدأ الدكتور محسون جلال فقال إنه سعد بلقاء الرئيس أكثر من مرّة ويوّد أن يفسح المجال للآخرين . ماذا عن الآخرين؟ الأخ عبدالعزيز الزامل وهو يخاف خوفاً شديداً في الطائرة العملاقة ، فما بالك بالصغيرة ، أبدى اعتذاره الحار . الأخ فهيد الشريف ، وهو لا يقل خوفاً عن عبدالعزيز ، اعتذر بدوره .

خلال الرحلة كنت أفكّر في الرجل العجيب الذي سألتقي به اليوم . هذا الرجل الذي جاوز الثمانين ، بسنوات ، وما زال يتشبّث بالحياة وبالحكم بكل عنفوان . هذا الرجل الذي أصبح جزءاً من الحياة اليومية لكل مواطن تونسي . هذا الرجل الذي اتهمه أعداؤه بالخيانة ثم أظهرت الأحداث أنه أكثر وطنية من أكثر المزايدين على الوطنية . هذا الرجل الذي حارب فرنسا وهادنها وحاربها وهادنها . هذا الرجل الذي استطاع أن يمسك بيديه كل خيوط اللعبة السياسية في تونس طيلة ثلاثين عاماً . هذا الرجل الذي كان ، قبل أن تمنعه السن ، يتحدّث بالساعات الطوال إلى مواطنيه فيقول لهم كل شيء : أسرار الدولة وأسراره الخاصة . قال لهم مرة إن ذكاء رئيس وزرائه لا يزيد على «ذكاء الحمار»! وقال لهم مرة إنه شك في نسبة ابنه إليه لأنه «بخصية واحدة فقط» ولم يتوقّع أن ينجب!

- ستفهم الأمور على نحو أفضل إذا نسيت أن تونس

جمهورية ، وتصوّرت أنها مملكة مطلقة ، وأن الرئيس هو الملك المطلق . هذه هي حقيقة الأمور . إنه ملك بصلاحيات لا حدود لها . كانت هذه نصيحة عبدالعزيز الأصرم .

- أخبرني عن «أمراض» الرئيس . إنها تحيّرني للغاية . ما هو مرضه بالضبط؟

- هل تريد رأيي الشخصي؟ لا أعتقد أن هناك أي مرض حقيقي . إن الرئيس يعرف بحسّه السياسي المرهف أن الناس يملّون ويرغبون في التغيير . ولهذا كان المرض وسيلة ملائمة لاعتزال المسرح السياسي بين فترة وأخرى ، وترك المجال للحكومة . بعد مضي مدة معيّنة يبدأ الناس في التململ والتذمّر . وهنا «يشفى» الرئيس من مرضه ويعود إلى المسرح السياسي فيعزل ويعيّن . حصل هذا في الماضي . وسيحصل في المستقبل . مرض الرئيس في حقيقته مرض سياسي .

في هذا الكلام شيء من الصحّة . إلا أنه لا بد أن هناك مرضاً حقيقياً بالإضافة إلى المرض السياسي . لولا هذا المرض الحقيقي لما تمكّن الهادي نويره من أن يضع الرئيس على الرفّ ويحكم فترة تجاوزت السنتين . أذكر أنني سألت الحبيب ، الشطي وكان أيامها وزيراً للخارجية ، عن مرض الرئيس فأجاب دون تردّد .

- إنه الانهيار العصبي! أعصاب الرئيس منهارة تماماً . لا أعتقد أن بإمكانه العودة إلى مزاولة العمل .

إلا أن الأعصاب المنهارة استعادت -فجأة- هدوءها . وعاد

الرئيس إلى مزاولة العمل . وفقد الحبيب الشطّي منصبه!

وعندما وصلنا إلى الفندق كان الرئيس يقوم بجولته اليومية في الواحات مشياً على الأقدام . أخبرني الأخ عبدالعزيز الأصرم أن زوجته ، الماجدة وسيلة بنت عمار ، ستستقبلني . بعد حوالي ربع ساعة من الانتظار دخلت الماجدة . وكانت مفاجأة كبرى .

تونس كلّها تتحدّث عن وسيلة ، وأكثر الحديث لن يسر وسيلة لو أتيح لها أن تسمعه . يتحدّث الناس عن امرأة قوية الإرادة شديدة الطموح حادّة الذكاء «تحكم» ولا «تملك» بينما «يملك» وزوجها ولا «يحكم» . يتحدّثون عن أسرتها الثرية ، وعن نشاطاتها الاقتصادية ، وعن ممتلكاتها المنتشرة عبر تونس . يتحدّثون أنها تقيل السفراء وتعيّن الوزراء ، وتدير الشؤون الداخلية والخارجية . يتحدّثون عن خلافها مع الهادي نويره وكيف نجح في إقصائها عن الشؤون العامة ، ومنع وسائل الإعلام من نشر صورتها أو ذكر اسمها . ثم تدخّل القدر فأصيب الهادي بجلطة في الدماغ . وشفي أبو رقيبة وعاد . وعادت معه الماجدة . وظهرت صورها -من جديد- في كل شارع .

كنت أتوقع أن ألتقي بامرأة «مفزعة» «مهيبة» «ارستقراطية» «متكبّرة» ترتدي أحدث الأزياء الباريسية وتتكلّم بحساب وبلكنة أجنبية . إلا أنها دخلت في ثوب قطني بسيط شبيه «بالروب» . وفي قدميها خفّان رخيصان من البلاستك .

ليس على وجـهـهـا أي «مكيـاج» . شـعـرها الذي يمتـزج فيـه البياض بالسواد متروك على علاّته . كانت ابتسامتها صادرة من الأعماق ، وكان ترحيبها صادراً من الأعماق . هل هذه هي المرأة الحديدية التي تدير تونس؟! «نعم!» قال صوت في مكان ما في عقلي «لا!» قال صوت في مكان ما من قلبي : «هذه العجوز الحانية ليست سوى امرأة عجوز حريصة على حماية زوجها ومصالح زوجها» . حدّثتني بحرارة وعفوية كأننا قد التقينا منذ سنين . تحدّثت عن زوجها :-

- الجميع ينتظرون موته . منذ سنوات طويلة وهم ينتظرون موته . إلا أنه رفض التعاون! رفض أن يموت . لقد تعبوا من التوقّع . فقدوا الأمل في موته . إلا أنه سيموت يوماً ما . ماذا سيحدث لتونس بعده؟! إنني لا أتصوّر تونس بدونه . تونس لا زالت بحاجة إليه .

وماذا سيحدث للماجدة بعده؟! سؤال لم تطرحه هي . ولم أطرحه أنا!

وتشعّب الحديث مع الماجدة فروت لي قصّة الوحدة بين تونس وليبيا . روت لي قصّة «الاتفاقية» التي وقّعها بورقيبة في جربه مع القذافي لإنشاء دولة موحّدة . كنت حريصاً على أن أعرف السر وراء هذا التصرّف الغريب .

- قالت : لم يكن هناك سر . كان الرئيس مريضاً . كان مريضاً جداً . عندما يكون الرئيس مريضاً لا يكون مسؤولاً عن أي تصرّف من تصرّفاته . استغلّ القذافي مرض الرئيس

وحصل على توقيعه . هذا كل ما هنالك . لم يكن الرئيس يدري ماذا كان يفعل .

ثم روت لي الماجدة كيف عارضت الاتفاقية . وكيف حاول القذافي أن يجتذبها إلى صفّه وإلى صف الوحدة دون جدوى . وكيف غيّر الرئيس موقفه . وروت لي جهودها المضنية لاستعادة وثيقة الوحدة الأصلية من القذافي ، وكيف نجحت هذه الجهود مؤخّراً ووافق الأخ العقيد على أن يعيد الورقة التاريخية إلى تونس .

- قالت : حاول القذّافي أن يتملَّص . قلت له «يا معمّر! لا تحاول خداعي! إنني أكبر من أمّك! إنني في السبعين! هل تعتقد أنك تستطيع أن تخدعني؟» .

استغربت مرّتين . مرّة لأنني لم أتصوّر أنها تجاوزت الستين على الإطلاق . والثانية لأنها تعترف بعمرها الحقيقي . قلت لها إنها تبدو أصغر من عمرها بكثير . سرّها ذلك وابتسمت فبدت أصغر وأصغر .

- قلت : حدّثيني عن قصّتك مع الرئيس .

ضحكت من الأعماق :

- يا وليدي! القصّة تطول . الرئيس نفسه تحدّث عنها علناً ورواها بتفاصيلها أكثر من مرة . لقد رأيته لأول مرّة في بيت أبي في بداية الثلاثينات . كان محامياً مرموقاً بدأ يبرز ، وكنت فتاة في السادسة عشرة . كان البيت مليئاً بالزوّار . وأشك أنه لاحظني وقتها . ثم توالت الأحداث وتولّى زعامة الحركة

الوطنية ونفي إلى الخارج وتزوج سيّدة فرنسية . خلال سنوات نفيه انضممت إلى الحركة الوطنية ونظّمت الفرع النسائي . عندما عاد من المنفى بعد الحرب العالمية الثانية كنت في استقباله مع بقية أعضاء الحزب . ويبدو أنه لاحظني . وبعدها بفترة طلب أن نتزوج ، وكان قد ترك زوجته الفرنسية . كنت وقتها مطلّقة أرعى شؤون ابنتي . رفضت الفكرة وقلت له إنني لن أتزوج إلا عندما تكبر ابنتي وتتزوج . وهذا ما كان وتزوّجنا في بداية الستينات . يا وليدي! لماذا تسأل هذه الأسئلة؟

تذكّرت ما قاله لي الأخ عبدالعزيز الأصرم في الطائرة عن وسيلة . قال إن الرئيس فوضوي إلى أبعد الحدود فيما يتعلّق بحياته الشخصية . ويحتاج إلى من يدير شؤون منزله وحياته اليومية . قال إنه قبل أن يتزوجّها كان يعيش بلا نظام وبلا انضباط محاطاً بمجموعة من المرتزقة والمنتفعين . قال إنه لولاها لتغيّر تاريخ تونس إلى الأسوأ . على أن كلام الأصرم قد يكون فيه شيء من المحاباة فهو معروف بصلته الوثيقة بالماجدة .

- بدلاً من أن ننتظر الرئيس هنا لماذا لا نذهب إليه في جولته؟ ألا تريد أن تمشي قليلاً مع الرئيس؟

ذهبت مع الماجدة في سيّارتها إلى الواحة . تخيّلت أنني في الإحساء . النخيل نفسه . الأشجار نفسها . القنوات المائية نفسها . الطبيعة نفسها . الرمال نفسها .

عندما اقتربنا نزلت من السيّارة وتقدّمت إلى الرجل الضئيل الذي توقّف عن المشي ليرّحب بي ويعانقني .

- من السعودية؟! أهلاً وسهلاً بك! أهلاً وسهلاً بك! هذا ، اذن ، هو المجاهد الأكبر!

رجل قصير القامة يبدو أطول من حقيقته ، لأنه يقف طيلة الوقت وقفة عسكرية دون أدنى انحناء . مرفوع الرأس دائماً . تقطر الثقة بالنفس من كل قسماته . غير أن السنين لا ترحم أحداً - حتى قدامى المجاهدين . اليد اليسرى تهتز في حركة عصبية لا يستطيع أن يسيطر عليها . الدموع تنهمر من عينيه بمناسبة ، وأحياناً بدون مناسبة . الشفتان ترتجفان في رعشة لا شعورية تجعل من الصعب عليه ، أحياناً ، أن ينطق كلمة معيّنة . كل أعراض مرض الشيخوخة ، باركنسون ، تبدو واضحة على هذا الشيخ الذي لا يريد أن يعترف بمرور الزمن .

مشينا معاً . كانت خطواته شابّة فتيّة . قال :

- يا ابني! إنني إنسان بسيط . إنسان عادي . إنسان من هذا الشعب . ولكن الظروف وحدها هي التي فرضت عليّ مسؤولية القيادة . مسؤولية هذا الكفاح الطويل . هذا الجهد المرير العنيف . مع فرنسا . ومع تبعات الاستقلال . وفي فترة ما بعد الاستقلال . أنا إنسان بسيط يا إبني!

وهنا انهمرت الدموع بغزارة . ووقف الرئيس يبحث عن المنديل في جيوب البذلة إلا أنه لم يجده . ثم تقدّمت الماجدة ووقفت بجانبه . وأشارت إلى المصوّرين كيلا يصوّروا هذا الموقف «الدامع» . ودار حوار طريف بين الرئيس وزوجته . هي تصرّ أنها وضعت المنديل في جيبه وهو يصرّ أنه لا يوجد منديل في أي

جيب من جيوبه . ثم حسمت الجدل بأن أدخلت يدها في إحدى جيوبه واستخرجت المنديل . كفكف الرئيس دموعه وواصلنا السير . وواصل الحديث عن ذكرياته :

- لي ذكريات كثيرة مع المملكة . ومع الملك عبدالعزيز رحمه الله بالذات . لا يمكنني أن أنسى هذه الذكريات . لقد أقمت فترة طويلة في المملكة . وقد أكرمني الملك عبدالعزيز وأحسن وفادتي . أعطاني صرّة كبيرة مملوءة بالجنيهات الذهبية . أيامها لم أكن معروفاً ولم تكن قضية تونس معروفة . كنت أحاول شرح القضية . تصوّر صرّة كبيرة مملوءة بالجنيهات الذهبية . . .

في السيّارة أثناء عودتنا إلى الفندق واصل الرئيس حديث الذكريات . تحدّث عن اعتقاله في فرنسا . وفي إيطاليا . كان يذكر اسم الضابط المسؤول عن المعتقل في إيطاليا . وتفاصيل كثيرة دقيقة . تشعر وأنت تستمع إليه أنه ردّد هذا الحديث من قبل آلاف المرّات . وسيردّده -لو أتيح له- آلاف المرّات في المستقبل . زوجته تستمع بابتسامة لطيفة تكاد تقول إنها سئمت سماع هذا الحديث . بين الوقت والآخر كانت تتدخّل لكي تذكّره باسم أو بتاريخ .

في أثناء سيرنا كان هناك أطفال صغار يجرون وراء السيّارة ويهتفون بحرارة :

- بورقيبه! بورقيبه! بورقيبه!

أظن أني لا أتجنّى على الحقيقة إذا قلت إن أحداً من

الزعماء العرب الأحياء الآن لا يتمتّع بالشعبية نفسها التي يتمتّع بها المجاهد الأكبر في تونس. صحيح أنه لا توجد مؤشّرات دقيقة لقياس الشعبية. وصحيح أن التركيز الهائل على شخص الرئيس في وسائل الإعلام التونسية على نحو يوشك أن يصل إلى تقديس الفرد، يؤدي إلى صعوبة بالغة في التفرقة بين «حقيقة» الشعبية «وصورتها» في وسائل الإعلام، إلا أنه يبدو لي، رغم هذا كله، أن هناك حباً كبيراً يربط هذا القائد العجوز بمواطنيه.

تذكّرت المضيفة التونسية التي سألتها مرّة ونحن على متن طائرة من طائرات الخطوط السعودية عن رأيها في بورقيبة فأجابت على الفور وبدون تردّد:

- إنني أتمنى لو أستطيع أن آخذ من عمري عشر سنوات وأهديها له! وتذكّرت القصّة التي رواها لي أخي عادل. كان بدوره مسافراً وكانت المضيفة تونسية فقال لها مداعباً:

- ألا ينوي بورقيبه أن يموت؟

وكانت نتيجة هذه المداعبة «الثقيلة» أن انفجرت باكية وظلّت تبكي طوال الرحلة. تذكّرت صديقي التونسي الذي يتقن تقليد بورقيبة والضحكات التي تنفجر عندما يقلّده: ضحكات الحب الخالص، لا الحقد ولا الكراهية.

- بورقيبه! بورقيبه! بورقيبه!

- يا فخامة الرئيس. شعبك يحبّك.

- أي والله! أي والله! يحبونني كثيراً. يحبونني كثيراً.

وأحبهم كثيراً! يحبّونني! يحبّونني!

وانخرط المجاهد الأكبر في بكاء حار . وسالت الدموع بغزارة مرّة أخرى . وخرج المنديل مرّة أخرى . وحوّلت وجهي إلى الأطفال الذين يطاردون السيّارة ويهتفون . ووعدت نفسي ألا أفتح أي موضوع قد يثير مشاعر الرئيس ويستمطر دموعه .

وعندما وصلنا إلى الفندق طلب منّي أن أبقى لأتناول معه طعام الغداء . ثم اعتذر ليرتاح فترة قصيرة . خلال هذه الفترة كنت أفكرّ في هذا الرجل غير العادي . تذكّرت ما قاله لي صديق تونسي مرّة . يتمتّع أبو رقيبة بميّزتين يندر اجتماعهما في أي زعيم ، وبالذات أي زعيم عربي . أولاً ، النزاهة المطلقة : فالرجل لو مات ما ترك خلفه ديناراً واحداً . وثانياً ، الصراحة الجارحة المطلقة ، مع الناس أجمعين .

عاد الرئيس وذهبنا إلى طاولة الطعام . الطاولة لا تتّسع إلا لعشرة أشخاص ، شأنها شأن أي طاولة أخرى في المطعم . كنت قد سمعت الكثير عن حب الرئيس للرفاهية والقصور . قيل لي إن مقرّ إقامته في تونس لا يختلف في فخامته عن قصور ملوك فرنسا . قيل لي إنه أنفق أموالاً طائلة في بناء الضريح الذي سيرقد فيه بعد عمر طويل . ما شاهدته في الواحات كان أمراً مختلفاً . كان الرئيس يعيش في الفندق في جناح عادي ، ويخالط النزلاء ويتناول طعامه في مطعم الفندق . حتى الحراسة المفروضة عليه كانت خفيفة وغير ملحوظة .

وفي أثناء الطعام تحدّث الرئيس في عشرات الموضوعات ، إلا أن حديث الذكريات ظلّ موضوعه المفضّل . قلت له إنني معجب برأيه في الطبيعة الحضارية التقنية للصراع العربي الإسرائيلي . وقلت له إنني أؤيّد ما قاله أكثر من مرة من أنه ما دام العرب عاجزين عن صنع قطع الغيار اللازمة للطائرات فسيكون انتصارهم على إسرائيل أمراً صعباً . وانفرجت أساريره واندفع يتحدث بحماسة :

- منذ زمن بعيد وأنا أردّد هذا الكلام . منذ زمن طويل طويل . أقول للعرب : تعلّموا التكنولوجيا . تعلّموا الطيران . تعلموا إصلاح الطائرات . تعلّموا صنع الطائرات . لا تضيّعوا أوقاتكم مع روسيا وتشيكوسلوفاكيا ويوغسلافيا . هذه الدول متخلّفة تقنياً . حتى فرنسا متخلفة تقنياً . الآن لا توجد التقنية المتطورة إلا في دولتين : أمريكا وألمانيا . يجب علينا أن نحصل على التقنية من هاتين الدولتين .

- واليابان يا فخامة الرئيس . لا تنسَ اليابان .

- اليابان أيضاً . ولكن أمريكا أولاً . أمريكا! أمريكا عالم آخر! عالم مذهل!

وتساءلت -في سري- لماذا لا يكتشف بعض الزعماء العرب التقنية الأمريكية إلا في كهولتهم أو شيخوختهم؟!

خلال حديثي كانت هناك انتقادات مبطنة لرئيس وزرائه السابق الهادي نويره . في كل مرة كانت الماجدة تقاطعه بحزم قائلة «الله يشفيه!» ويردد خلفها بطاعة : «الله يشفيه!» .

- عبدالناصر كان «سخطة» لعنة على الأمة العربية. لم يكن بوسع أحد أن يعتمد على كلمته. لقد حدّثته في القاهرة عن فكرتي، في العودة إلى مبدأ التقسيم. قلت له إن إسرائيل تعتمد في شرعيتها ووجودها على قرار التقسيم الصادر من الأمم المتحدة. قلت له إن تمسّك العرب بهذا القرار سيضع إسرائيل في موقف حرج للغاية. تحمّس عبدالناصر للفكرة وأيّدها. قال لي إنه موافق مائة في المائة. قال لي «أعلن الفكرة وسوف أويدك علناً». وتصافحنا على هذا الأساس. ذهبت إلى الأردن وأعلنت الفكرة أمام الفلسطينيين أنفسهم. ماذا حدث؟ كان عبدالناصر أول من هاجمني. وصمني بالخيانة. قال عني ما لا يقال. ثم ماذا حدث؟ ذهب السادات إلى الإسرائيليين في القدس وصالحهم. الأمة العربية منكوبة. من «سخطة» إلى «سخطة». والقذافي بدوره «سخطة».

ودار الحديث دورة أخرى وقال الرئيس بصراحة آسرة:

- مرضي هذا عجيب. إنني أنسى ما حدث قبل سنوات قليلة عندما كنت مريضاً ولا أنسى أشياء من طفولتي. لقد جاءت أم كلثوم إلى تونس قبل عشر سنوات وأقامت عدّة حفلات وحضرت إحدى حفلاتها وصوّرت معي، ولكنني لا أتذكّر شيئاً من ذلك. لا أتذكّر أنني قابلت أم كلثوم مطلقاً. قالت لي زوجتي إنني رأيتها. ولكنني لم أصدّق. حتى أحضرت لي زوجتي الصورة. أمر غريب هذه الذاكرة. إنني لا أتذكّر زيارة أم كلثوم ولكنني أتذكّر أول قصيدة حفظتها في

المدرسة الابتدائية :

تعـــيّـــرنا إنّا قليل عـــديدنا

فـــقلت لهـــا إن الكرام قليلُ

وانطلق الرئيس ينشد القصيدة بصوت خطابي جهوري يرتفع مع كل بيت من أبياتها ، وبإشارات حماسية من يديه ورأسه حتى وصل إلى آخر بيت ، فاندفعنا جميعاً في تصفيق عفوي حاد .

تطرّق الحديث إلى المرأة :

- أنا أول من حرّر المرأة من قيود التخلّف . كانت المرأة التونسية مجرّد بضاعة تباع وتشترى . لم يكن لها رأي في زواجها ولا في طلاقها . لقد غيّرت هذا كله . منعت تعدّد الزوجات . واستندت في هذا المنع إلى القرآن نفسه . القرآن يقول «ولن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم» .

هل أدخل نقاشاً فقهياً مع المجاهد الأكبر؟ هل أقول له إن منع التعدّد رأيه هو وليس ما يقوله القرآن؟ غير أنني تذكّرت قصة رواها لي الصديق الدكتور علي فخرو وزير التربية والتعليم في البحرين . كان مع وفد من العرب الوزراء في تونس واستقبلهم الرئيس وأدلى بعدّة نظريات في التربية . قال علي فخرو بأدب :

- إسمح لي أن أختلف معك!

انفعل الرئيس وغضب وتشنّج وأخذ يردّد :

- يا أخي اختلف معي! أنت حر! أنت حر! اختلف معي!

أنا لم أطلب منك أن تتفق معي! أنا حر في رأيي! وأنت حر في رأيك!

وشعر علي أن الجو تكهرب وحاول أن يتدارك ما يمكن تداركه :

- لا أقصد يا معالي الرئيس أن أعارضك!

إلا أنه زاد الطين بلّه إذ انطلق الرئيس يوبّخه .

- نحن في تونس لا نقول للرئيس معالي الرئيس . نقول له فخامة الرئيس . أمّا معالي فتقال للوزير لا للرئيس . عاد الرئيس إلى تحرير المرأة :

- والطلاق . أصبح الطلاق الآن أمام المحكمة . أصبح القاضي هو الذي يحسم الموضوع . والزوجة بدورها لها الحق في أن تطلب الطلاق . أصبحت المرأة مساوية للرجل في كل الحقوق والواجبات . هذا هو الإسلام الحقيقي .

كان معنا رئيس الشركة التونسية للمناجم . قال للرئيس :

- يا فخامة الرئيس لدينا عدد من المهندسات التونسيات في المناجم . وقبل أن يعرف الرئيس عن ارتياحه لهذه المساواة تدخّلت في الحديث :

- أرجو يا فخامة الرئيس باعتباري وزيراً للصناعة أن تتذكّر أن العمل الصناعي الشاق ليس المجال الأمثل لعمل المرأة . الكثير من التشريعات الدولية تمنع عمل المرأة في المجالات الصناعية الشاقّة . والمناجم ، إن لم تخنّي الذاكرة ، هي إحدى هذه المجالات . واندفع الرئيس .

– هذه ملاحظة هامّة . هذه ملاحظة جوهرية . خذوها بعين الاعتبار . لا أريد للفتيات التونسيات العمل الشاق في المناجم .

ونظر إليّ رئيس الشركة بحنق واضح . وابتسمت . وعاد الرئيس يكمل حديثه عن المرأة :

– والحجاب؟! ما دخل الحجاب بالفضيلة؟ بإمكان المرأة أن تكون محجبّة دون أن تكون فاضلة . وبالإمكان أن تكون سافرة وعلى خلق فاضل . إنني أعتقد أن مستوى الأخلاق في تونس بين النساء أعلى بكثير من مستواه أيّام الحجاب . والزواج! الزواج يحتاج إلى تفاهم مسبق بين الرجل والمرأة . لا يمكن لرجل وامرأة لا يعرفان بعضهما أن يتزوجّا زواجاً ناجحاً . لقد نصحت التونسيين والتونسيات بعدم العجلة في الزواج . نصحت كل شاب وشابّة أن يعرفا بعضهما جيداً قبل الزواج . «نصائح» الرئيس للتونسيين والتونسيات تشمل كل شيء . في الماضي كانت هذه النصائح تجيء في خطابات طويلة يلقيها على فترات متقاربة . أمّا الآن فقد انحصرت في مقاطع صغيرة من الخطابات القديمة . هذه المقاطع تسمّى «من توجيهات الرئيس» ، وهي أول ما يسمعه المواطن التونسي عندما يصحو من نومه ، وآخر ما يسمعه قبل أن يأوي إلى فراشه . يسمعها في الإذاعة ، ويراها في التلفيزيون ، ويقرأها في جريدة الحزب الرسمية .

التركيز الإعلامي على شخص الرئيس لا يوجد له مثيل

حتى في أكثر الدول ثورية . عيد ميلاد الرئيس عيد قومي . «وهجرته» إلى المشرق عيد آخر . واعتقاله مناسبة وطنية . والإفراج عنه مناسبة أخرى . وعودته . وهكذا لا يمرّ أسبوع واحد دون أن تحتفل وسائل الإعلام بمناسبة «بورقيبه» تتحوّل إلى حدث تاريخي!

ثم انتقل بنا الحديث إلى التنمية . وكانت سعادة الرئيس بالغة عندما أخبرته أن المملكة ستستعين بعدد من الفنيين التونسيين في مجال الكهرباء :

- الإطارات! تدريب الإطارات! التدريب التقني والمهني . هذا هو أساس كل شيء . هذه هي الأولوية المطلقة .

تمنيّت لو كانت لدى الزعماء العرب ، وبخاصّة زعماء مصر ، هذه النظرة الواضحة إلى التدريب . إذن لتغيّرت صورة التنمية في العالم العربي تغييراً جذرياً .

- أهم ما حقّقناه في تونس بعد الاستقلال هو التعليم . التعليم لكل مواطن . لم تعد هناك أميّة في تونس . التعليم هو نقطة البداية . عاد رئيس شركة المناجم إلى الحديث :

- يا فخامة الرئيس . هناك قصة غريبة في المنجم . كان لدينا عامل بسيط لديه ولد . ثم تعلّم الولد في الجامعة وأصبح مهندساً . وعاد ليعمل في المنجم وأصبح رئيساً لأبيه . تصوّر يا فخامة الرئيس أن ابن العامل أصبح بفضل التعليم الذي انتشر في عهدكم رئيساً لأبيه .

توقّف الرئيس عن تناول طعامه . ونظر باهتمام إلى رئيس

الشركة . وصمت حوالي دقيقتين . ثم انفجر فجأة باكياً :

- الابن رئيس الأب؟! وفي المنجم نفسه؟! الحقيقة أنا متأثّر لهذا . متأثر جداً . وفي المنجم نفسه؟! أصبح ابن العامل مهندساً! الحقيقة شيء مؤثّر .

استمرّت الدموع في الانهمار . وارتفع المنديل مرة أخرى . ونظرت إلى رئيس الشركة بشيء من الحنق . واكتفى هو ، هذه المرة ، بالابتسام .

وواصل الرئيس حديث الذكريات . ذكرياته مع الملك عبدالعزيز . ومع الملك فيصل . ومع الملك فاروق . ومع ثورة اليمن الأولى والفضيل الورتلاني . ومع إقامته في المملكة . وفي مصر . ومع قصص الكفاح الطويل .

كل زوّار الرئيس ، تقريباً ، يستمعون إلى هذه الذكريات . غير أن هناك فترة في تاريخ الرئيس لم يسمعه أحد من زوّاره يتحدّث عنها . فترة الحرب الأهلية بينه وبين صالح ابن يوسف . الفترة التي شهدت مقتل الآلاف في صراع دام رهيب . كان بورقيبه أيّامها يمثّل الجناح المهادن لفرنسا ، وابن يوسف يمثّل الجانب المتشدّد ، أيّام «خذ وطالب» . أيّامها لم تكن لبورقيبه شعبية تذكر . هذه الفترة ، وهي في ما أظن تثير في نفسه الكثير من الألم وربّما من الندم ، تختفي تماماً من حديث الذكريات .

نظرت إلى هذا الشيخ الصامد . وإلى زوجته التي تحاول حمايته من العالم الخارجي . وإلى أعوانه وزملائه الجالسين

حوله على المائدة . وتذكّرت أبي رحمه الله . تذكّرت حالته عندما تجاوز التسعين وأصبحت مقابلة الآخرين تمثّل عبئاً كبيراً يحتاج إلى الكثير من التجلد ومن الحذر حتى لا يخطئ . وتذكّرت قصة الزعيم الجاهلي الذي تقدّم به السن حتى خشي أن يدركه الخرف ، فطلب من ابنه أن يقرع الأرض بعصاه إذا شعر أن أباه قد شطّ أو سها . أحسست أن الماجدة تمارس المسؤولية نفسها .

شعرت بالكثير من الشفقة . إن مواجهة الشيخوخة في حد ذاتها أمر عسير . ومواجهتها من سدة الرئاسة أمر أشدّ عسراً . ومواجهتها من هذا الموقع مع الإصرار أن كل شيء على ما يرام أمر مؤلم ومحرج . غير أن هذا الشيخ لا يفكّر في الاعتزال . إنه «الرئيس» مدى الحياة - حتى يموت . وهو يتظاهر بمزاولة كل مهام الرئاسة : يستقبل الوفود والزوّار ، ويوقّع القرارات ، ويصدر التوجيهات . خطّه على الصورة التي أهدانيها لا يزال واضحاً وقوياً .

كنت قد سألت الماجدة :

- كيف يستطيع الرئيس أن يمارس مهام عمله؟ ألم يعد هذا صعباً إذا تذكّرنا عمره وصحته؟

- إننا نحرص على عدم إرهاقه . إن الأوراق التي يطلّع عليها محدودة . والأوراق التي يوقّعها محدودة . وفترات الراحة طويلة . وفترات الرياضة محدّدة . إن برنامجه اليومي ليس مرهقاً على الإطلاق .

ولم تقل، بطبيعة الحال، إنها تتولّى الإشراف على «الجانب المرهق»، إنها هي التي تحدّد الأوراق التي يراها والقرارات التي يوقّعها. إنها هي التي توافق -أو لا توافق- على مواعيده. وتستدعي الوزراء للحضور. وتشرف على العلاقات الخارجية. وتدعي أنها مجرّد زوجة عادية لرجل غير عادي!

تذكّرت قصة سمعتها عن الرئيس. ذهب إليه مرة أحد وزرائه وطلب منه أن يقبل استقالته من العمل نظراً لمرضه وتقدّمه في السن. ورفض الرئيس بإصرار. قال له إنه لو مات كمواطن عادي ودفن كمواطن عادي فلن يشعر بموته أحد. أمّا إذا مات وهو وزير وشيّع إلى مقرّه الأخير وهو وزير فستكون هناك وحدات من القوات المسلّحة وموكب مهيب. أي أنه سيموت «بما يليق به من تكريم»!

الرئيس يريد أن يحيا رئيساً - ويموت رئيساً. هذا هو قدره. أعانه الله على مواجهته!

عندما خرجنا من مائدة الطعام كان الرئيس يواصل حديث الذكريات. قال لي أن زملاءه في المعتقل في فرنسا. بدأوا يشعرون باليأس عندما طال الاعتقال. وقال إنه لم ييأس أبداً. وكان دائماً يردّد الآية الكريمة:

«أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مسّتهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب».

كانت نبرات صوته وهو يردّد هذه الآية قوية فتية كأنها

صادرة من فتى في العشرين .

قبل أن أغادر وجدتني أنظر نظرة أخيرة إلى هذا الرجل الذي يقف أمامي شامخاً وكأنه قطعة من التاريخ ، تاريخ مملوء بالسعادة والمرارة . تاريخ من العنفوان المتمرّد ومن الضعف البشري .

شعرت بموجة من الحنان تعتصر قلبي ، ودون أن أشعر انحنيت وطبعت قبلة على جبين المجاهد الأكبر .

مع المستشار «اللسان»!

في أواخر سبتمبر سنة ١٩٨٢م، انفرط التحالف بين الحزب الاشتراكي الديمقراطي وبين حزب الأحرار، وسقطت بذلك الحكومة الائتلافية التي كانت تحكم ألمانيا الغربية، وسقط المستشار هيلموث شميدث. كنت أشاهده على التيليفزيون عندما أعلن عن فوز خصمه، وكانت قسمات وجهه تنضح بالألم والمرارة. قام من مقعده وتوجّه إلى مقعد منافسه هيلموث كول وهنّأه بالفوز. إلا أن التهنئة كانت باردة فاترة صادرة من السطح لا من الأعماق.

وقفز إلى ذهني على الفور مشهدان. المشهد الأول عن زيارة شميدث الأولى إلى الرياض سنة ١٩٧٧م. كان الحوار بينه وبين الملك خالد يدور حول الزراعة وولع الملك الشديد بها. قال له شميدث:

- عندما أتقاعد يا صاحب الجلالة سوف أزوركم لأعمل مستشاراً اقتصادياً لكم.

ومن دون تردّد وبعفوية أجابه الملك:

- عندما تتقاعد؟ تقصد عندما يعزلك البرلمان؟ إن الذين

يتولّون السلطة لا يتقاعدون ولكنهم يزاحون من أماكنهم .

ودهش شميدث . ثم ضحك .

أمّا المشهد الثاني فمن زيارته الثانية إلى الرياض ١٩٨١م وكنت الوزير المرافق . كنّا عائدين بعد حفل العشاء الذي أقامه الملك له في نهاية نهار طويل مزدحم بالعمل . كان يشعر بشيء من الشفقة على نفسه . نظر إليّ وتنهّد وقال :

- هذا شيء لا يطاق! ستة عشر ساعة من العمل كل يوم طيلة ثلاث عشرة سنة ، ثماني سنوات منها كمستشار وخمس قبلها كوزير . هذه حياة لا تطاق . لا أستطيع أن أستمرّ على هذه الوتيرة . ومن دون دبلوماسية سارعت إلى الرد :

- يا دولة المستشار مادام هذا شعورك فلماذا لا تستقيل؟!

- لقد فكّرت في ذلك عدّة مرّات . صدّقني . إنني أنوي أن أكمل المدة الباقية حتى نهاية فترة البرلمان الحالية في سنة ١٩٨٤م ، وعندها سأعتزل السياسة . هذه حياة مستحيلة .

رأيت شميدث عن كثب عدّة مرّات . رأيته خلال زيارته الأولى إلى الرياض . وخلال زيارته الثانية . وخلال زيارة الأمير فهد إلى ألمانيا سنة ١٩٧٩م . وخلال زيارة الملك خالد إلى ألمانيا سنة ١٩٨١م . ورأيته كمواطن عادي . الألمان يلقّبون شميدث «باللسان» لما عهد منه من صراحة جارحة تصل إلى حدود الوقاحة .

إلا أنني خلال تعاملي معه لم أره مرّة واحدة يخرج على مقتضيات الأدب واللياقة . بل كان على العكس نموذجاً

للمضيف المهذّب والضيف اللبق .

مـرّة واحـدة فـقط انزلق «اللسـان» إلى الحـديث عن «الجنس» . كـان مـتـضـايقـاً لأن أطبـاءه منعـوه من التـدخين «والعطوس» بعد أن كان يدخّن طيلة الوقت . كان يلمس بطنه ويردّد بمرارة :

- انظر إلى هذا الكرش! اثنا عشر رطلاً زدتها منذ امتنعت عن التدخين .

لاحظت أنه لا زال يستنشق مادة بنيّة فسألته :

- وماذا عن «العطوس»؟ إنك لا تزال تستعمله .

- أين «العطوس»؟ لا شيء هنا سوى النعناع .

لا يوجد أي تبغ . تصوّر أنني أستنشق نعناعاً! أتدري ما هو شعوري؟! إنه شعور الذي يتفرّج على فلم جنسي مثير فيرى أمامه كل شيء ويكتفي هو بالفرجة!

وضحك «اللسان» وضحكت .

كـانت زيارته الثـانيـة إلى الرياض بسـبب دبّابات «الليبورد» . وموضوع «الليبورد» ، هذا ، أعرف كيف انتهى ولا أعرف كيف بدأ . يقال إن الشركة الصانعة أبدت استعدادها لبيع هذه الدبّابات المتطوّرة إلى المملكة ، فأظهرت الحكومة السعودية رغبتها في الشراء . إلا أن هذه الرغبة لم يفصح عنها رسمياً . خلال زيارة الأمير فهد لألمانيا لم يكن هناك بحث من قريب أو بعيد في الدبّابات . وخلال زيارة الملك خالد كانت هناك همسات وتلميحات في المحادثات الجانبية ، ولكن الموضوع

لم يناقش في جلسات العمل الرسمية .

إلا أن الدبّابات تحوّلت فجأة إلى «أزمة» متفجّرة في وسائل الإعلام الألمانية . شغل الرأي العام الألماني بهذه القضية ، وانقسم بين المؤيّدين والمعارضين لصفقة الدبّابات . كانت الأغلبية في حزب شميدث تعارض الصفقة . وخشي شميدث أن يتصاعد الموقف وينسف العلاقات السعودية الألمانية . وبحزمه المعهود قرّر أن يواجه المشكلة بنفسه ، فأبدى رغبته في أن يزور المملكة بأقرب فرصة ممكنة . وهذا ما حدث .

بعد انهاء مراسم الاستقبال في المطار قال لي الأمير فهد :

- قابله على انفراد بعد وصوله إلى قصر الضيافة . واحرص على أن تعرف منه حقيقة الموقف . نحن لا نريد أن نحرجه ولا أن نحرج أنفسنا . ولا نوّد أن نطرح الصفقة للبحث الرسمي إلا بعد أن نتعرّف على موقفه .

بعد وصولنا إلى قصر الضيافة ؛ طلبت أن أتحدّث معه على انفراد . وأبلغته رسالة الأمير فهد .

- إنني شاكر للأمير فهد حرصه على عدم إحراجي . وسوف أكون صريحاً معك . وأرجو أن تنقل ما أقوله لك حرفياً للأمير . إنني لا أستطيع بأي حال من الأحوال أن أمضي في صفقة الدبّابات . هناك معارضة كبيرة في ألمانيا . وفي حزبي بالذات . وفي وسائل الإعلام . صحيح أن هناك مؤيّدين ولكن الموضوع متفجّر وسيقسم ألمانيا . تأكّدوا أن إسرائيل لا علاقة لها بالموضوع من قريب أو بعيد . هذا موضوع داخلي . الألمان

حسّاسون من بيع السلاح . نحن نحمل تركة ثقيلة من التاريخ . أرجو أن تبلّغ الأمير أن هذه المشكلة قد تطيح بالحكومة . أيّهما أهم في نظر المملكة صفقة الدبّابات أم بقاء الحكومة؟! في المستقبل قد يتغيّر الجو وأستطيع إتمام الصفقة . أمّا الآن فإنني لا أستطيع . إن مصير الحكومة في الميزان .

أبلغت الرسالة للأمير فهد خلال حفلة العشاء التي أقامها الملك خالد للمستشار . وكان ردّ الأمير أهدأ بكثير مما توقّعت :

- هذا شأنهم . نحن لا نريد إحراجهم . إذا كانوا لا يستطيعون فنحن نتفهّم موقفهم . نحن في الأساس لم نبد أي رغبة إلا عندما فهمنا أنهم مستعدّون للبيع . أخبره أننا لن نسبّب له أيّ مشكلة .

بعد العشاء ، وقبل أن أتحدّث معه عن موقف الأمير فهد اجتمع المستشار بالملك خالد . وتطرّق البحث إلى الملك عبدالعزيز . فقال الملك خالد :

- كانت معظم أسلحة الملك عبدالعزيز ألمانية . كانت الأسلحة الألمانية مرغوبة ومفضّلة .

لم يكن الملك يشير إلى صفقة الدبّابات من قريب أو بعيد . كان يتحدّث عن البنادق القديمة التي كانت تستخدم في حروب الملك عبدالعزيز . إلا أن سحابة من الوجوم لفّت الحاضرين خوفاً أن تكون هناك أبعاد أخرى لجملة الملك .

ولعلّ الملك لاحظ ذلك فأراد أن يوضّح الأمر :

- كانت حروبنا في الجزيرة بسيطة وليست حروباً فظيعة

كحروبكم في أوروبا .

في السيّارة أخبرت شميدث بموقف الأمير فهد . فتنفّس الصعداء وكأن عبئاً ثقيلاً قد أزيح عن عاتقه . عندها فقط أدرك أن زيارته نجحت في تجنّب الأزمة . واستشهد بمثل ألماني يقول «كل أمر ينتهي نهاية طيّبة فهو أمر طيّب» .

وفي اليوم التالي في السيّارة في طريقنا إلى المباحثات الرسمية مع الأمير فهد ، سألته عن الجيل الجديد في ألمانيا ونظرتهم إلى العسكرية ، وإلى العلاقات مع الاتحاد السوفيتي . قال :

- هناك روح جديدة تجتاح ألمانيا كلّها . لا أستطيع أن أسمّيها عدم المبالاة ولكنها روح تعادي العسكرية وتتعلق بالسلام بأي ثمن . إن تركتنا التاريخية في ألمانيا ثقيلة ومرهقة ويصعب على غير الألمان أن يفهموها . ومع ذلك فقد اضطرّت حكومتي إلى اتخاذ قرارات صعبة . كان أصعبها قرار الموافقة على وضع صواريخ ذرّية أمريكية في ألمانيا . من يدري فقد يتوقّف مصير الحكومة على هذا القرار . الجيل الجديد لم ير الحرب العالمية الثانية . لقد تعوّد على السلام ولا يريد الحرب . الكثير من الشباب مخدوعون بالاتحاد السوفيتي ولا يصدّقون أن لديه نوايا عدوانية .

خلال المباحثات الرسمية عاد المستشار إلى موضوع الدبّابات وشرحه بتفصيل وتوسّع . ووعد أن الظروف قد تسمح في المستقبل بوجود مناخ ملائم للمضي في الصفقة . فيما عدا

ذلك شملت المباحثات العلاقات الثنائية ومشكلة الشرق الأوسط ، والمشاكل العالمية ، والوضع في أوربا . ولم يكن فيها جديد .

كانت العلاقات السعودية الألمانية خلال عهد شميدث خالية من المشاكل . بل إن الميزان التجاري كان في السنوات التي سبقت سنة ١٩٨٠م يميل لصالح ألمانيا . ومن هنا فقد كان الحوار بين المسؤولين السعوديين والمسؤولين الألمان خالياً من العقد والإحراجات . وعلاوة على هذا فإن العلاقة بين الأمير فهد والمستشار قد توطّدت فأصبحت صداقة حقيقية . كان كل منهما يحترم الآخر ، ويحرص على التشاور مع الآخر في كل مناسبة ، ويغتنم أي فرصة للتعبير عن مشاعر الود والتقدير .

خلال زيارة الأمير فهد لألمانيا سنة ١٩٧٩م طرأت مشكلة بورتوكولية . قالت إدارة البروتوكول الألماني إن الأمير فهد نائب لرئيس الوزراء ، ولهذا فإن الذي سيستقبله في المطار وزير الخارجية جنشر ، وهو في الوقت نفسه نائب المستشار . إلا أن رئيس المراسم السعودية رفض وأصرّ على أن يكون المستشار نفسه في استقبال ولي العهد . تعقّد الموضوع واضطّر السفير السعودي إلى مقابلة المستشار وشرح المشكلة . ومن دون تردّد وافق المستشار على أن يذهب لاستقبال الأمير .

وردّ الأمير فهد التحية بأحسن منها . كانت هناك تحفّظات من الجهات الأمنية السعودية على زيارة برلين الغربية ، إلا أن الأمير فهد رفض النصيحة ومضى قدماً في الزيارة . وقد شكره

شميدث بحرارة على هذه المبادرة .

مبنى المستشارية في بون - من دون شك - من أقبح المباني الرسمية التي رأيتها في حياتي - إن لم يكن أقبحها على الإطلاق! وهذا القبح يشمل داخل المبنى وواجهته على حد سواء . من الخارج تبدو البناية كقلعة كئيبة في لون الطين ، لا يحتوي تصميمها على خيال أو إبداع . ومن الداخل تتصف غرفها وقاعتها بتقشّف شديد ، وكأنك داخل إدارة بنك من بنوك الدرجة الثالثة . وقد أثارت هذه البناية الكثير من الانتقاد في ألمانيا نفسها . ويبدو أن الرغبة في الهروب من التقاليد الهتلرية المتسمة بالضخامة والفخامة كانت المسؤولة عن هذا المبنى الحزين . يبدو أن روح هتلر لا تزال ترفرف على ألمانيا!

دارت المباحثات في جوّ من المودّة . وكانت في حقيقتها مجردّ تبادل لوجهات النظر . وباستثناء جلسة واحدة وبعض المباحثات الجانبية بين الوزراء السعوديين ونظرائهم ؛ كانت الزيارة بمثابة رحلة سياحية .

وتكرّرت التجربة ذاتها عند زيارة الملك خالد سنة ١٩٨١م . مرة أخرى كسر الألمان البروتوكول وخرج رئيس الجمهورية لاستقبال الملك في المطار ، على خلاف العادة التي جرت على استقبال رؤساء الدول في حديقة القصر الجمهوري . وقد اتخذت الأحاديث بين الرئيس كارتنز والملك طابع المرح والمداعبة . روى له الملك ذكرياته عن زيارته لبرلين سنة ١٩٣٩م . وكانت ذاكرة الملك تحتفظ بكثير من التفاصيل : اسم

الفندق واسم الشارع والمطاعم التي زارها . ومن ناحيته حدّثه الرئيس عن هوايته المفضّلة : السير عبر ألمانيا . وقال إنه قطع ألمانيا الغربية كلّها -تقريباً- مشياً على الأقدام . في كل مكان ذهب إليه الملك كانت هناك مشاعر ودّية وترحيب حار ، مما حدا بشميدث إلى أن يقول للملك .

- يا جلالة الملك! إن زيارتكم هي الزيارة الرسمية الوحيدة التي مرّت دون أن تسبّب لي مشاكل . دون أن أخشى من مظاهرات معادية أو حوادث محرجة . تصوّر مدى قلقي خلال زيارة بريجينيف . أمّا بالنسبة لكم فكما ترى : ابتسامات في كل مكان .

في الليلة التي أقام فيها رئيس الجمهورية حفل العشاء الرسمي للملك وقع حادث طريف . فقدت حقيبة ملابسي وفيها العباءة السوداء التي ترتدى عادة في المساء . قدم الملك خالد مشكوراً لي إحدى عباءاته . على أثر تسلّمها وارتدائها وصلت الحقيبة وأصرّ الملك -ضاحكاً- على استرجاع عباءته وقيمتها كما قال «أربعة آلاف ريال» . غير أنني رفضت ولا زالت العباءة موجودة لديّ حتى اليوم .

خلال جلسة العمل بين الملك والمستشار تعرّض شميدث إلى الأمريكيين والسعوديين -معاً- بشيء من النقد :

- يا جلالة الملك . لقد أوضحنا موقفنا من مشكلة الشرق الأوسط مراراً وتكراراً . على انفراد ومع شركائنا في السوق الأوروبية المشتركة . عارضنا الاحتلال الإسرائيلي وأيّدنا حق

الفلسطينيين في تقرير المصير . وأغضبنا الإسرائيليين أكثر من مرّة . إن لديّ دعوة لزيارة إسرائيل وما زلت أؤجلها سنة بعد سنة . ولكننا لا نستطيع أن نفعل أكثر من ذلك . نحن لسنا دولة عظمى . نحن لا نملك أي وسيلة للضغط على إسرائيل . أنتم تقولون لنا اضغطوا على الأمريكيين . تسمح لي يا جلالة الملك أن أقول لك إننا لا نستطيع ذلك . أنتم القادرون على الضغط . لديكم البترول وهو عامل ضغط مهم . ولديكم الاستثمارات المالية وهي بدورها عامل ضغط مهم . لماذا لا تستعملون قوّتكم؟ نحن لا نستطيع أن نحارب معارككم مع أمريكا نيابة عنكم . تكفينا معاركنا .

وفيما يخصّ السادات ، كان صريحاً للغاية :

- إنني أعرف رأيك في السادات يا جلالة الملك ، وأعتقد أنّك تعرف رأيي . ولهذا فلا توجد فائدة من الإسهاب في هذا الموضوع . ولكنني أقول لك بكل أمانة إنني أعتقد أنه رجل شجاع وجريء . إنني أعرف أنّكم رفضتم كامب ديفيد ولكن كامب ديفيد تمثّل بداية جيّدة . إنّها ليست نهاية المطاف ولكن بدايته . كان هذا -ولا يزال- موقفنا منها . أمّا فيما يتعلّق بالسادات ، فسوف نستمرّ في دعمه بكل الوسائل .

كانت العلاقات السعودية/ البريطانية تمرّ وقتها بفترة من الركود ، سُحب فيها السفيران على أثر الأزمة التي تلت عرض فيلم «مقتل أميرة» في التليفزيون البريطاني . تطرّق المستشار إلى هذا الموضوع :

- لقد بحثت تاتشر معي موضوع العلاقات الفاترة بين لندن والرياض . والواقع يا جلالة الملك إنني أرى أن الوقت قد حان لاستئناف علاقات المودّة . إن أي أزمة طارئة لا ينبغي لها أن تعكّر صفو العلاقات إلى الأبد .

وطمأنه الملك إلى أن العلاقات مع بريطانيا في طريقها إلى العودة إلى حالتها الطبيعية .

أثناء حفل العشاء كان مانهوفر وزير المالية الألماني يجلس بجانبي . وتطرّق البحث إلى الأمريكيين . وكان يشتكي بمرارة :

- إن التعامل مع هؤلاء الناس يزداد صعوبة يوماً بعد يوم . لقد كنت في زيارة لأمريكا مؤخّراً وقابلت خلالها عضواً بارزاً في مجلس الشيوخ . وقد بادرني بالشكوى من موقف ألمانيا «المتخاذل» من الاتحاد السوفيتي . وقد فوجئ عندما قلت له إن موقفنا أكثر حزماً من الموقف الأمريكي . نحن نجنّد الشباب الألماني تجنيداً إجبارياً وأنتم لا تفعلون ذلك . جيشنا يكاد يصل إلى نصف مليون وجيشكم أقلّ من هذا العدد . لقد قبلنا بتدمير مدننا وقرانا وشعبنا عندما قبلنا بوضع الصواريخ الذريّة الأمريكية على أرضنا . فوجئ الرجل وقال لي إنه لم يكن يعرف هذه الحقائق . تصوّر! كيف يمكن التعامل مع هؤلاء الناس؟!

شميدث خلال زيارته للرياض شكا بدوره صعوبة التعامل مع قادة الولايات المتحدة :

- إن التعامل مع الهواة أمر مزعج ومتعب . كارتر ليس

سياسياً محترفاً ولكنه مجرّد هاوٍ وجد نفسه على قمّة السلطة في دولة عظمى. إنه لا يعرف ما يريد ولا يعرف كيف يحقّق ما يريد. إنه يحيّر أصدقاءه وأعداءه معاً. كل هذا التردّد. كل هذا الخوف. كل هذه التغييرات المفاجئة في السياسة. المواقف المتبدّلة كل يوم. هذه أمور تدعو إلى القلق البالغ. لقد كان التعامل سهلاً مع نيكسون لأنه كان سياسياً محترفاً لديه رؤية واضحة للعالم الخارجي. أمّا مع كارتر فالتعامل عسير. ويكاد يكون مستحيلاً.

كل الذين كتبوا عن شميدث تحدّثوا عن «ذكائه الحاد». كل الذين قابلوه عادوا مبهورين «بذكائه الحاد». يوشك «الذكاء الحاد» أن يكون السمة المميّزة لشميدث. ولكن كيف يستطيع إنسان أن يعيش تحت وطأة هذه السمعة؟ كيف يمكن لإنسان أن يكون ذكياً طيلة الوقت؟

في المباحثات الرسمية وفي الأحاديث الجانبية كنت أحاول أن أتلمّس مظاهر هذا الذكاء الخارق. ولكنني لم أجد أي دليل. صحيح أن الذكاء أمر نسبي. وصحيح أنني قابلت زعماء يقطر الغباء من وجوههم ومن حروفهم. وصحيح أن طبيعة المباحثات لم تتطلّب استعمال الذكاء. غير أنه مع ذلك يبقى لديّ انطباع وهو أن ما يتردّد عن ذكاء شميدث الأسطوري فيه شيء من المبالغة.

ربّما كان السبب في هذه السمعة براعته في التعامل مع وسائل الإعلام. قال لي أحد الوزراء الألمان:

- انظر إلى هذا العطوس!! إنه يستخدمه لكي يثير المصوّرين ومشاهدي التليفزيون! هذا هو السبب الحقيقي . مثل قبعة البحار القديمة التي يرتديها دائماً . يريد أن يظلّ في الذاكرة . ولقد نجح في ذلك . تصوّر أن العطوس أصبح الآن «موضة» في ألمانيا . أمّا قبعة البحار فقد أصبحت جزأ من شخصيته في أذهان الناس .

وربّما كان السبب أنه مريح في التعامل . الرجل لا يلف ولا يدور . ولا يلمّح . صراحته تجنّب المتعاملين معه الكثير من الصعوبات التي تنشأ من الكلمات الغامضة الفضفاضة التي تعني كل شيء ولا شيء .

إلا أنني إذا كنت لم أجد في شميدث ما يوحي بالذكاء الخارق فإنني لم أسمع منه أي رأي يمكن أن يوصف بالغباء .

لا أستثني إلا تحليلاً واحداً سمعته منه عن مشاكل العالم الثالث :

- في العالم الثالث لا توجد سوى مشكلتين : ارتفاع سعر البترول وتزايد السكّان . لو وجد حل لهاتين المشكلتين لانتهت مشاكل العالم الثالث .

أصبت بالكثير من خيبة الأمل . واضطررت إلى التعليق .

- ولكن يا دولة المستشار أسعار البترول لم ترتفع إلا منذ سنوات قليلة . والعالم الثالث ظلّ متخلّفاً طيلة قرون . والانخفاض في نسبة تزايد السكّان -في حد ذاتها- لن تؤدي إلى انتهاء التخلّف . هناك الأميّة . هناك احتكار العالم

الصناعي للتقنية . هناك النظام المالي الدولي الذي يعمل لصالح الأغنياء .

غير أن المستشار لم يغيّر رأيه

- بطبيعة الحال هناك عدّة مشاكل . ولكن الحقيقة هي أن الطاقة والسكّان هما المشكلتان الرئيسيتان .

لقد كان هذا رأياً غير ذكي من الرجل ذي الذكاء الحاد!

في ربيع سنة ١٩٨٣م عاد شميدث إلى المملكة ، كمواطن عادي هذه المرة ، بدعوة شخصية من الملك فهد . واستقبل بحرارة بالغة . قضى مع الملك في مخيّمه في الصحراء أكثر من ثلاث ساعات . واستقبله ولي العهد الأمير عبدالله في الديوان . وأقام له نائب وزير الدفاع الأمير عبدالرحمن مأدبة عشاء حضرها عدد من الوزراء . وفي اليوم التالي دعوته على الغذاء في منزلي . ودعاه أحمد زكي يماني إلى العشاء في منزله .

لم يتغيّر كثيراً . لا يبدو أن فراق السلطة قد أثّر عليه لا سلباً ولا إيجاباً . سألته :

- في آخر مرّة التقينا فيها يا دولة المستشار كنت تشكو كثرة العمل والإرهاق - فما هو شعورك الآن؟

- شعور عميق بالسعادة . لا تتصوّره . إنني أشعر أن عبئاً كبيراً قد أزيح عن كاهلي . إنني أعمل الآن ثماني ساعات في اليوم فقط - هذا بالنسبة لي برنامج مريح .

وخلال الزيارة تحدّث عن انطباعاته عن بعض زعماء

العالم ، وكان كعادته صريحاً إلى أبعد الحدود .

- الرئيس ريجان مشكلة عويصة! إنه لا يفهم شيئاً في الاقتصاد ولا الشؤون المالية ، ولا يدري أنه لا يفهم . كيف يمكن أن تتخاطب مع هذا الرجل؟ إنه لا يستمع إلى ما تقوله . بعد عشر دقائق يسرح ذهنه بعيداً! إنه يقضي مع مستشاريه نصف ساعة فقط ، التعامل مع مثل هذا الرجل مستحيل . لقد قلت لمارجريت تاتشر حاولي أن تتفاهمي معه أنت . ربّما استمع إليك .

- دولة المستشار - على ذكر السيدة تاتشر ما رأيك فيها؟!

- في البداية كان التعامل معها مزعجاً . كانت شديدة الغرور والترفّع . تدريجياً بدأت تكتشف أنها ليست المخلوقة الوحيدة في العالم التي تملك الشجاعة والحزم . عندما بدأت تكتشف هذه الحقيقة أصبح التعامل معها ممكناً . أطرف شيء أن اللورد كارنجتون كان يسميّها «مولاتي»[٦] . لقد تعاملت معها بسهولة ثم بعد ذلك انشغلت بالحرب العالمية الثالثة : معركتها في الفوكلاند .

وتحدّث شميدث عن ذكرياته مع بريجنيف :

- كان بريجنيف روسياً قبل أن يكون شيوعياً . كل الانفعال العاطفي والخصائص الروسية تتجسّد فيه . كانت لي

---

(٦) هذا تلاعب بالألفاظ فكلمة مولاتي في الانجليزية my mistress يمكن أن تعني مولاتي و سيدتي ويمكن أن تعني عشيقتي!

معه مواجهات عنيفية أكثر من مرّة . استطرد مرّة في وصف ويلات الحرب العالمية الثانية وبدأ يتحدّث باندفاع وحماسة . غير أنني قاطعته . قلت له إن مأساة الحرب لم تقتصر على روسيا بل دفعت ألمانيا الثمن غالياً . قلت له إنني كنت ضابطاً صغيراً ورأيت بعيني مآسي الحرب . لا تعيّرنا بالحرب فقد عانينا منها بالقدر نفسه .

قال شميدث أنه خلال إحدى زيارته لموسكو طلب من بريجينف أن يجمعه بأعضاء اللجنة المركزية للحزب . وقال إنه توقّع أن يرفض بريجينيف . إلا أنه وافق . واجتمع فعلاً بأعضاء اللجنة . لم يكن أحـــد يدري ذلك الوقت أن اندوبوردف سيخلفه .

واستطرد شميدث في ذكرياته عن بريجينيف :

-- رغم مظهره الصلب كان عاطفياً للغاية . استقبلني مرّة في المطار وكانت الموسيقى تعزف السلام الوطني الألماني . ولعلّه تذكّر الماضي . وفكّر كيف خرج إلى المطار يستقبل ضيفاً من دولة كانت عدوّته اللدود . فجأة التفت فوجدته يبكي . كانت الدموع تنهمر بغزارة من عينيه .

قال شميدث عن الروس :

- إن لديهم عقداً كثيرة لا بدّ من فهمها لكي نستطيع أن نفهمهم . إن لديهم خوفاً غير طبيعي من الولايات المتحدة يفوق -بمراحل- خوف الولايات المتحدة منهم . لديهم خوف غير طبيعي من عودة ألمانيا كقوة عسكرية معادية . لديهم خوف

غير طبيعي من الصين . من دون فهم هذه المخاوف يصعب فهم الروس ويصعب التعامل معهم .

سألته عن اندروبوف فقال لي إنه لم يعرفه عن كثب . إلا أن فينشسكي ، الوزير السابق في حكومة شميدث ومرافقه في الزيارة ، قال لي إنه اجتمع به أكثر من مرّة . وقال إنه رجل كفء ملمّ بتفاصيل دقيقة . كان بريجينيف لا يهتم بالصغائر . أمّا اندروبوف فيعرف كل صغيرة وكبيرة . ولعلّ مرجع هذا عمله في جهاز الاستخبارات .

خلال دعوة الغداء في منزلي حاولت إبعاد المناسبة عن الطابع الرسمي . لم أدع مسؤولاً واحداً . كان كل الضيوف من الأصدقاء السعوديين المتزوجين بألمانيات . وكان اجتماعاً عائلياً لطيفاً .

قبل مغادرته المنزل أهديته خنجراً عربياً أثرياً ، وقلت له مداعباً :

- هذا قد ينفعك في التعامل مع «البعض»!

- بالتأكيد! وبالذات مع جينشر (زعيم حزب الأحرار) .

رغم أنه يؤكد أنه مستمتع بحياته الجديدة إلا أن شميدث لا يزال نشطاً سياسياً ، إنّه -بالتأكيد- لا يحيا حياة المتقاعدين!

مع المستشار «الذي جاء من الأرياف»!

لم أكن أتصوّر أن هيلموث كول سيصبح ذات يوم مستشاراً لألمانيا الغربية . كنت أتابع نشاطاته على التليفزيون الألماني ، وفي ذهني ظن يكاد يقارب اليقين أنه سيظل زعيم معارضة طيلة حياته السياسية . من ناحية ، كان الانطباع السائد أن التحالف القائم بين الحزب الاشتراكي الديمقراطي وبين حزب الأحرار سيظلّ قائماً ، وسيظلّ هيلموث شميدث متربّعاً على سدة الرئاسة ما دام هذا التحالف . من ناحية أخرى ، كان الحزب الديمقراطي المسيحي نفسه غير واثق من جاذبية زعيم الجماهيرية فرشّح في انتخابات سنة ١٩٧٨م شتراوس لمنصب المستشار بدلاً من كول . من ناحية أخرى ، كان كول يبدو أقرب إلى المزارعين من رجال الدولة : قوام ضخم طويل ، مظهر يوحي بالخشونة ، أسلوب شعبي بسيط ، وطريقة في التعامل لا تختلف عن طريقة المزارعين . حتى إنه نفسه قال بعد انتخابات حقّق فيها حزبه انتصاراً واضحاً : «لقد كانوا يظنّوننا مجموعة جاءت لتوّها من الأرياف»!

إلا أن ما لم يكن بالحسبان حدث . انفرط التحالف الحاكم

وقام على أنقاضه تحالف جديد بين الحزب المسيحي الديمقراطي وحزب الأحرار ، وأصبح هيلموث كول مستشاراً . وبدأت نظرة الناس إليه تتغيّر . بدأوا يكتشفون فيه مواهب لم تخطر على بالهم يوم كان في المعارضة . حقاً إن للسلطة نوراً متوهّجاً يخفي بعض العيوب كلية ، ويظهر بعضها بكل عنفوانها وقوّتها .

ومع تولّي كول للمستشارية بدأت بعض المشاكل في العلاقات السعودية/ الألمانية . كانت هذه العلاقات في عهد شميدث تتميّز بدرجة غير مألوفة من الودّ والحرارة . وكان من المشكوك أن تستمر على هذا النحو في عهد أي خلف له كائناً من كان . إلا أن كول جاء بمشاكل في العلاقات لم يكن لها مبّرر . أعلن خلال الحملة الانتخابية أنه سيزور إسرائيل ، وأعلن فور انتخابه أنه سيقوم بهذه الزيارة بالفعل . هلّلت إسرائيل وطبّلت للزيارة وأعدّ برنامج حافل لها . كان هناك تخوّف في المملكة من أن تؤدي هذه الزيارة إلى تنازلات أمام الإسرائيليين أو إلى إضعاف الموقف الألماني من قضية الشرق الأوسط . وكانت هناك علامة استفهام عن الدوافع الكامنة وراء هذا القرار .

من ناحية أخرى ، كانت التوقّعات في المملكة تذهب إلى أن كول سيكون أقدر من سلفه على إتمام صفقة الدبّابات «الليبورد» ، تلك العقدة التي ظلّت عبر عدّة سنوات تقلق صفو الوئام الحار بين البلدين . وكانت هذه التوقعات مبنيّة على أساس أن كول لن يلقى من حزبه المعارضة نفسها التي لقيها

شميث من حزبه عندما حاول أن يتم الصفقة . إلا أن كول لم يفعل أو يقل شيئاً يوحي بأنه سيكون أقدر من سلفه على القيام بالصفقة . بل على النقيض ، كانت هناك تلميحات رسمية وشبه رسمية أن الصفقة لن تتم .

بدأ كول عهده ، إذن ، بوعد قاطع بزيارة إسرائيل قبل زيارة أية دولة في المنطقة ، وبموقف متخاذل من صفقة الدبّابات . ومن هنا كان من المنطقي أن يقابل عهده بشيء من القلق في المملكة .

بعد انتخاب كول بشهور كان الأمير سلطان النائب الثاني لرئيس مجلس الوزراء ووزير الدفاع والطيران يقضي إجازة خاصة في مصح في بادن بادن . وخلال هذه الزيارة رتّب له اجتماع خاص مع المستشار في منزله استغرق بضع ساعات . خلال الزيارة تحدّث المستشار ، كما أخبرني الأمير سلطان فيما بعد ، بإسهاب عن كل شيء : عن طفولته وشبابه وقصّة المنزل الذي يعيش فيه وآرائه السياسية . واستمع طويلاً إلى وجهة نظر الأمير سلطان عن قضية الشرق الأوسط . إلا أن الاجتماع لم يتمخّض عن نتائج واضحة . قال كول إنه لا يزال يفكر في موضوع دبّابات الليبورد وإنه لم يتوصّل إلى قرار . وقال إنه سينفّذ وعده بزيارة إسرائيل . وقال إنه مستعد لإعطاء المملكة معدّات عسكرية أخرى غير الليبورد . وقال أنه سيكلّف شبيث رئيس وزراء إحدى الولايات الألمانية لمتابعة الموضوع كممثّل شخصي له . وردّ عليه الأمير سلطان أن قرار بيع الدبّابات راجع

له بطبيعة الحال . ولكنه ينصحه أن يتّخذ فيه قراراً حاسماً إما بالموافقة أو بالرفض . أما إعطاء معدّات أخرى فحل وسط لا يرضي أحداً .

بعد هذا اللقاء ، وفي صيف سنة ١٩٨٣م ، كنت في ألمانيا في إجازتي السنوية . اتصل بي صديقي ويلي كورف ، صاحب الشركة التي ساهمت مع حكومة المملكة في بناء مصنع الحديد والصلب بالجبيل ، وطلب مني أن أجتمع بصفة خاصة بشبيث للتحدّث في موضوع الدبّابات . حاولت ، بشدّة ، التملص من هذا الاجتماع لأنني لا أودّ أن أزجّ بنفسي في موضوع الدبّابات مرة أخرى ، بعد أن أقحمت فيه إقحاماً خلال حكم شميدث ، خصوصاً وأنه موضوع لا ناقة لي فيه ولا جمل . إلا أن كورف أصرّ . وبالفعل حضرت غداء خاصاً في منزله ببادن بادن حضره شبيث رئيس وزراء الولاية .

كان شبيث متعاطفاً مع المملكة إلى حد كبير ، ومع صفقة الدبّابات إلى حد أكبر . ولم يكن تعاطفه قائماً على أساس من المودّة الخالصة بقدر ما كان مبنياً على تقييم واقعي للآثار الإيجابية التي ستعود على الاقتصاد الألماني ككل ، واقتصاد ولايته بالذات ، من جراء الصفقة ، وعلى الحرص أن تظل العلاقات التجارية بين المملكة وألمانيا وطيدة ومزدهرة . كان شبيث مستغرباً من موقف المستشار . قال لي إن المستشار قضى حياته السياسية بأكملها منهمكاً في النشاطات الحزبية الداخلية ، وإن العالم الخارجي ومشاكله يمثّل دنيا جديدة

بالنسبة له . وقال لي إنه يبدو متردّداً وعاجزاً عن اتخاذ قرارات حاسمة . كما قال لي إن اثنين من مستشاريه منحازان بصفة واضحة إلى إسرائيل . وذكر لي أن المستشار كلّمه قبل مدّة وقال له إنه قرّر أن يرسله إلى المملكة كمبعوث خاص ، وإنه أمر بإعداد الطائرة .

قال شبيث : كانت الطائرة بالفعل جاهزة للإقلاع في المطار . غير أن الموضوع لم يكن موضوع طائرة . ماذا سأفعل في المملكة؟ ماذا سأقول لهم هناك؟ اتصلت بمكتب المستشار وأخبرت مدير مكتبه أني لا أستطيع أن أذهب إلى المملكة على هذا النحو المفاجئ . تحدّثت مع المستشار وقال لي إن بإمكاني أن أعد السعوديين بمعدّات وقطع غيار في الوقت الحاضر . قلت له إن هذا لا يكفي وسيعرّضني ويعرّضك ويعرّض السعوديين لحرج شديد . إلا أن المستشار لم يقتنع . بعد ذلك تحدثت مع الأمير سلطان وشرحت له الموقف . قال لي الأمير إننا -بطبيعة الحال- نرحّب بقدومك ، ولكننا لا نعتقد أن الزيارة ستحقّق أي غرض . وتلقّى المستشار الرسالة نفسها من الأمير سلطان . عندها فقط اقتنع وعدل عن الفكرة . ونجوت من الإحراج . . .

ثم سألني شبيث عن رأيي في الموضوع . قلت له إنني لم أكلف ببحث موضوع الدبّابات ولهذا لا أستطيع أن أقول شيئاً عنه . غير أن لي نصيحة واحدة وهي أن يطمئن كول الدول العربية قبل زيارته لإسرائيل أن هذه الزيارة لا تعني أي تغيير في الموقف الألماني من القضية العربية ، وأن يرسل مبعوثاً

خاصاً على مستوى عال لنقل هذه الرسالة . وأضفت أن هذه البادرة قد تخفّف بعض الشيء من الآثار السلبية التي ستنجم من زيارة كول لإسرائيل .

غير أن الظروف تدخّلت وأنقذت العلاقات العربية الألمانية من أزمة الزيارة . فجأة أعلن بيجن أنه قرّر الاستقالة ، وكانت الفترة التي تلت القرار فترة مشاورات مكثّفة حول رئيس الوزراء الذي سيخلفه ، ولم يكن من المناسب ، والحالة هذه ، أن تتم الزيارة . وباتفاق الطرفين تقرّر أن تؤجّل الزيارة إلى موعد لاحق يتفق عليه الطرفان[٧] . وقدم كول إلى المملكة في اكتوبر سنة ١٩٨٣م دون أن يكون مثقلاً بأعباء الزيارة الإسرائيلية .

إلا أنه قبيل قدوم كول توالت التصريحات من ألمانيا وكلّها تؤكد أن كول لن يتّخذ خلال الزيارة أي قرار بشأن دبّابات الليبورد . وكان بالإمكان إهمال التصريحات الصحفية وشبه الرسمية . إلا أن تصريحاً رسمياً صدر من وزارة الخارجية الألمانية بالمعنى نفسه . وهنا قرّر الملك فهد أن يوضّح موقف المملكة فصدر بيان سعودي قبل الزيارة بيومين يستغرب التصريحات الألمانية ، ويؤكّد أن بوسع المملكة أن تشتري

---

(٧) قام كول بزيارة إسرائيل في يناير سنة ١٩٨٤م . ورغم ضغوط الإسرائيليين عليه بأن يتعّهد بعدم بيع أي أسلحة ألمانية للمملكة ، إلا أنه رفض الالتزام بأي وعد . وقال إن ألمانيا ستتّخذ قرارها حسب المصالح الألمانية ، ومع أخذ مختلف العوامل بعين الاعتبار بما في ذلك علاقتها مع «الصديقة» إسرائيل .

الدبّابات من أي مكان ، ويوضّح أن الاقتصاد الألماني سيكون المستفيد الأول من الصفقة . وأضاف البيان أن زيارة كول إلى المملكة جاءت بمبادرة منه ، وأن المملكة لن تثير موضوع الدبّابات خلال الزيارة .

قدم كول في ظل هذا الجو المشحون . قابله ولي العهد في المطار وذهب معه إلى قصر الضيافة . كنت في السيارة الثانية مع الرجل الثاني في الوفد الألماني ، وزير الدولة للشؤون الخارجية . كان شاباً في الثلاثينات اختاره كول من أوساط رجال الأعمال لهذه الوظيفة . كان قلقاً من البيان السعودي . وسألني .

– هل معنى هذا أن موضوع الدبّابات أقفل إلى الأبد؟ هل معنى هذا أن المستشار لا يستطيع أن يتحدّث في الموضوع؟

وأجبته :

– إن البيان اقتصر على القول إن المملكة لن تثير الموضوع ، ولكن بوسع المستشار بطبيعة الحال أن يقول ما يشاء وسيستمع له قادة المملكة . إلا أنني شخصياً أعتقد أنه يجب أن يقول شيئاً جديداً .

– إن ما سيقوله جديد . إنه لا يستطيع المضي قدماً في صفقة الليبورد ولكنه سيعرض أسلحة أخرى .

– مسدّسات وقطع غيار؟!

–كلا! كلا! إنه سيعرض ما هو أهم من ذلك بكثير .

خلال الاستراحة القصيرة في قصر الضيافة دار حديث ضاحك بين المستشار وبين الأمير عبدالله . أشار الأمير إليّ وقال :

- هل تعرف أنه من أنسبائكم؟ إنه متزوج من ألمانية .

والتفت المستشار إليّ وقال :

- أعتقد أن هذا هو أفضل قرار اتخذته في حياتك .

وأجبته إنني أتفق معه في الرأي .

بعد ذلك سأله الأمير عبدالله إذا كان يحب «العطوس» مثل شميدث فأجابه :

- إن لسلفي مزايا كثيرة ، غير أنه كان لا يخلو من عادات غريبة والعطوس أحدها . إنه تمسّك بالعطوس من باب العناد وحده ، بعد أن استغرب الكثير من معارفه هذه العادة وطلبوا منه التخلي عنها . أما أنا فلا أدخّن سوى الغليون .

كان من الواضح أن موضوع الدبّابات سيكون محور الزيارة كلّها .

وكما كان شميدث صريحاً وواضحاً عند الحديث عن الدبّابات كان كول بنفس الصراحة والوضوح . عقدت اجتماعات مكثّفة بينه وبين الأمير سلطان والأمير سعود الفيصل استغرقت عدّة ساعات . قال إن موضوع الليبورد أصبح موضوعاً عاطفياً متفجراً ، وإنه وصل إلى قرار أنه لا يستطيع أن يبيع الدبّابات . إلا أنه قال إن ألمانيا تصّنع كثيراً من الأسلحة المتطوّرة التي تستطيع المملكة أن تستفيد منها ، ويستطيع هو بيعها لأنها لم ترتبط بالضجّة الهائلة التي واكبت موضوع الليبورد . وذكر ، على سبيل المثال ، عربات «الجيوبارد» المصفّحة والصواريخ التي تحملها . وقال إن البدء بهذه المعدّات سيمكّن

تدريجياً من الوصول إلى الليبورد . رغم أن هذا الموقف لم يرض التوقّعات في المملكة ، إلا أنه كان من الواضح أن كول ذهب أكثر من سلفه الذي اكتفى برفض الصفقة . كما أنه أقنع المسؤولين السعوديين أن المملكة قد تستطيع الحصول على معدّات ألمانية متطوّرة يصعب الحصول عليها من مكان آخر .

بعد حفل العشاء الرسمي الذي أقامه الملك للمستشار ، تم اجتماع مصغّر ضمّ من الجانب السعودي ، بالإضافة إلى الملك الأمير عبدالله ، والأمير سلطان ، والأمير سعود الفيصل ، ولم يضمّ من الجانب الألماني سوى كول ومستشاره السياسي . استغرق الاجتماع قرابة ثلاث ساعات ، ورغم أن البحث قد تطرّق إلى السياسة الدولية وقضية الشرق الأوسط ، إلا أن صفقة الدبّابات كانت المحور الأساسي للاجتماع . قبل الملك بما عرضه المستشار وتمّ الاتفاق على أن يذهب وفد عسكري سعودي إلى ألمانيا لبحث الاحتياجات العسكرية السعودية . وتم الاتفاق على أن يعلن كول ذلك في مؤتمره الصحفي . كما تم الاتفاق على أن يقول أن صفقة الليبورد نوقشت ولكن لم يتّخذ قرار بشأنها .

في طريق عودتي مع المستشار إلى قصر الضيافة ، أحسست أن التاريخ يعيد نفسه . كما كان شميدث خلال آخر زيارة رسمية له للمملكة ، كان سعيداً لأنه يشعر أن زيارته نجحت في تجنيب العلاقات السعودية/ الألمانية أزمة خطيرة كان كول يعطي الانطباع نفسه . لم يتحدث معي مباشرة عن الصفقة أو

نتائج الاجتماع ، ولكن كان من الواضح أنه يشعر أن الهدف الأساسي من الزيارة قد تحقّق ، وأن بإمكانه أن يسترخي ويستمتع بما تبقّى من الزيارة .

في اليوم التالي بدأ الاجتماع الرسمي بين الوفدين . أطال المصوّرون التقاط الصور ، فما كان من كول إلا أن التفت إليهم ضاحكاً وقال :

- لماذا كل هذه الصور؟ لا يوجد فينا شخص وسيم يستحق التصوير سوى الأمير سعود الفيصل!

خلال المباحثات الرسمية لم يتطرّق أحد إلى صفقة الليبورد . ومع أن الملك فهد أشار إلى أن المملكة كانت طيلة حكم الملك عبدالعزيز تحصل على حاجتها من الأسلحة الخفيفة من ألمانيا ، إلا أن الإشارة كانت عابرة . تحدّث عن الصداقة السعودية الألمانية . وتحدّث عن تعاطفه الشديد مع رغبة الشعب الألماني في الوحدة .

وجاء دور كول في الحديث . وبعد عبارات للمجاملة التقليدية استطرد في وصف تفصيلي فلسفي لمفهوم الصداقة .

- لقد تحدّثت يا جلالة الملك عن الصداقة . وأحب أن أتحدّث بدوري عن الصداقة . كلمة الصداقة في اللغة الألمانية لفظة تشير إلى القلب والعقل معاً . إنني أؤيّد أن يتصرّف الإنسان من هذين المنطلقين العقل والقلب . إن العالم الذي يحكمه العقل وحده هو عالم بارد كالصقيع . والعالم الذي يحكمه القلب وحده هو عالم عاطفي متهوّر . لا بدّ أن نجمع

بين الاثنين . إن الإنسان لا يستطيع أن يغيّر أصدقاءه كما يغيّر ملابسه القديمة . ولقد أدركت معنى الصداقة الحقيقية من خلال تجربتي في معترك السياسة الألمانية . كنت أربح وأخسر وأصعد وأهبط ولكن أصدقائي لم يتغيّروا . أمّا بعد أن أصبحت مستشاراً فقد كثر الأصدقاء فجأة . أصبح لدّي من الأصدقاء ما يزيد على حاجتي . ومن هنا فإنني حريص على الاحتفاظ بأصدقائي الحقيقيين . إنني أؤمن أن الصداقة تعطي الحياة معنى أعمق . كان لي صديق عزيز قال لي وهو يحتضر إنه يموت سعيداً لأنه يموت وهو محاط بالكثير من الأصدقاء . قال لي إن هذا يجعله يشعر أن حياته لم تكن عبثاً . إن تلاميذ ميكافيلي ، وهم كثير في كل مكان ، لا يؤمنون بهذه القيم . ولكني أعتقد أن المدرسة الميكافيلية قد فشلت . وشهد التاريخ على فشلها . وستظل فاشلة دائماً .

بعد ذلك تحدّث المستشار عن مباحثات الليلة الماضية .

- ومن منطلق الصداقة الحقيقية نحاول أن نبني علاقاتنا معكم . لقد كانت مباحثاتنا صعبة . بل ربما كانت في بعض الأحيان مؤلمة . وإن كان الأمير سعود الفيصل ينجح دائماً في تلطيف الجو كلّما احتدم النقاش . هذه طبيعة الحوار بين الأصدقاء . هناك أمور يودّ المرء أن يحقّقها ولكنه لا يستطيع .

وتحدّث عن وحدة الشطرين الألمانيين :

- إنني أشكرك يا جلالة الملك على مشاعرك نحو وحدة ألمانيا . إن هناك عمقاً تاريخياً لهذه الوحدة . صحيح أن الحقائق

الراهنة لا تجعل قضية الوحدة مطروحة كقضية عملية ، إلا أن طموحات الشعب الألماني ورغباته وتطلّعاته هي أيضاً حقائق تاريخية . على رجل السياسة ألا ينظر إلى اليوم والغد فحسب ، بل ينظر إلى المستقبل البعيد والأجيال القادمة . لا يوجد لديّ أحفاد في الوقت الحاضر ، ولكنني أفكرّ قبل اتخاذ أي قرار في تأثيره على الأجيال القادمة .

بعد ذلك تحدّث المستشار عن أهمية التعاون الاقتصادي والصناعي بين البلدين . تحدّث عن أهمية الاستثمار السعودي في ألمانيا وإمكانيات زيادته . وتحدّث عن فلسفته الاقتصادية :

- كنّا طيلة السنين الماضية نعيش في مستوى أعلى من المستوى الذي يبرّره وضعنا الاقتصادي . كان هناك من يحاول أن يقنعنا أن الحل السليم هو أن ننقص ساعات عملنا ونزيد دخلنا -في الوقت نفسه . إنني أحاول جاهداً أن أصحّح هذه النظرة الخاطئة ، أن أصحّح ميراث سنين طويلة من هذا النوع من التفكير . ولكنني متفائل كل التفاؤل . كنت مع وزير خارجية اليابان وقلت له «إنكم تتحدّثون عن المعجزة اليابانية ، وصحافتكم تتكلّم عن ألمانيا كما لو كانت قد انتهت كقوّة صناعية عظمى . إلا أننا سنعود إلى محلّنا الطبيعي . سنكون قادرين على مواجهة التحدّي والمنافسة . نحن لا نخاف المنافسة بل نؤمن أنها تمنحنا الحيوية التي لا بدّ منها» .

ثم تحدّث الملك عن الشركات الألمانية العاملة في المملكة وقال إنها تتجاوز المائة . وامتدح كفاءة هذه الشركات

ومنجزاتها . وتحدّث عن سياسة المملكة الخارجية . وتطرّق إلى الأوضاع في إيران وحمّامات الدم التي قتل فيها الآف المواطنين . وقال إن إيران تهدد بإغلاق مضيق هرمز وتشجّع عمليات الإرهاب . وأضاف الملك أنه لا بدّ من تكثيف الجهود المبذولة لإنهاء الحرب العراقية/ الإيرانية .

وردّ المستشار :

- إنني أفهم قلقكم من الأوضاع في الخليج ، وأشاطركم القلق . أمّا فيما يتعلّق بالوضع العالمي فأنا مقتنع بأن الاتحاد السوفييتي لا يريد حرباً عالمية لأنه يدرك أن هذه الحرب سوف تعني دمار العالم كلّه . ولكنه يثير المشاكل عن طريق وسائل أخرى وقنوات بديلة . إنه يحاول أن يخيفنا ويهدّدنا . والطبيعة البشرية قد تنقاد للتهديدات . كل إنسان يحاول إنقاذ نفسه ؛ خاصّة الطبقة الوسطى فهي أكثر شعوراً بالخطر من غيرها .

تحدّث الملك بعد ذلك عن رياء القادة السوفييت وكيف يعيشون في ترف شديد رغم مبادئهم الماركسية . وقال إن أحد باعة الجوهرات العالميين قد أخبر مواطناً سعودياً أن أكبر زبائنه هم قادة الكرملين .

وهنا قال المستشار ضاحكاً :

- لقد كان لدى زوجتي الشعور نفسه في موسكو . قالت لي لو كنت زوجة سكرتير الحزب الشيوعي لعشت حياة أكثر رفاهية من الحياة التي أعيشها الآن .

ثم تكلّم المستشار عن إيران :

- إنني أعتقد أن الحرب الإيرانية/ العراقية هي أخطر مشكلة تواجه العالم اليوم . إنني لا أقلّل من أهمية مشاكل أمريكا الوسطى أو آسيا أو النزاع في الشرق الأوسط . ولكنني أعتقد أن الوضع في إيران أخطر . والسبب أنه لا توجد أي عقلانية تحكم التصرّفات في إيران . إنهم يبعثون بالأطفال الصغار إلى جبهة الحرب . وكل من رأى صور هؤلاء الأطفال لا بدّ وأن يصاب بالانقباض . لقد كان عمري خمسة عشر عاماً عندما انتهت الحرب العالمية الثانية . وعندما تنظرون إلى صور الحرب في تلك الفترة تجدون بينها صوراً لهتلر يوزّع أوسمة على جنود كانوا في الواقع أطفالاً في الرابعة عشرة والخامسة عشرة . كان هناك زملاء لي في الفصل قتلوا ولم يكن عمرهم يتجاوز الخامسة عشرة . هذا أصدق دليل على العقلية الإجرامية لأيّ نظام من أنظمة الحكم .

تحدّث المستشار بعد ذلك عن الإرهاب . وقال إنه لا بدّ من مقاومته بشدّة . وتحدّث عن تجربة ألمانيا مع الإرهابيين . ثم اندفع في قصّة عاطفية مؤثّرة :

- كانت فترة عصيبة للغاية . كنت زعيماً للمعارضة ولكنني كنت أؤيّد موقف الحكومة كل التأييد . كنت أتعاون مع المستشار . ولكنني كنت أعاني أكثر من أي إنسان آخر لأسباب شخصية . كان مشلاير رئيس اتحاد الصناعيين في ألمانيا من أعز أصدقائي . وعندما اختطف كان السؤال الذي يواجهنا هو هل نقبل مطالب الإرهابيين أم نصرّ على عدم المساومة . كان قراراً

في غاية الصعوبة . ورغم ذلك فقد وقفت مع الحكومة وأصررت على رفض التنازلات وعلى رفض الابتـزاز . من السـهل أن يتبنّى الإنسان مثل هذا الموقف في نقاش نظري ولكن عندما يكون مصير صديق عزيز في الميزان يتغيّر الموقف . جاءت زوجته وأولاده وكانوا يقولون لي «إنه صديقك العزيز فكيف تتّخذ موقفاً يهدّد حياته؟» . إلا أنني تمسّكت بموقفي . ومشلاير نفسه ساعدني على هذا . قبل اختطافه بفترة وجيزة -أذكر أنه كان يوم خميس- كنت مع مشلاير نتحدّث عن احتمالات اختطافنا نحن الاثنين . كان اسمي واسمه في قائمة وجدناها عند بعض الإرهابيين ، وكان الاختطاف احتمالاً وارداً . قلت له إنني أعطيت تعليمات واضحة بأنه في حالة اختطافي فيجب ألا يكون هناك أي مساومة أو تنازلات . وقلت له إنني بحثت هذا القرار مع زوجتي وأولادي . قال لي إنه يؤيّد هذا الموقف كل التأييد . يوم الاثنين الذي يليه اختطف مشلاير . أجبره المختطفون على أن يتحدّث في أشرطة وأرسلوها لنا . في أحد هذه الأشرطة كان الكلام موجّهاً إليّ : «عزيزي هلموت . أرجو أن يكون قرارك متفقاً مع الحديث الذي دار بيننا مؤخراً» . ثم قتله المختطفون . وكانت صدمة أليمة . وبعد مراسم الدفن نظرت زوجته إليّ نظرة طويلة عاتبة قاسية لن أنساها ما حييت .

عاد الحديث مرة أخرى إلى الشركات الألمانية ونشاطها . وإلى اللجنة السعودية الألمانية المشتركة للتعاون الاقتصادي .

وأكّد كول على أهمية المملكة كشريك لألمانيا في تجارتها الدولية . واتفق الرأي على استمرار التنسيق والتشاور في المستقبل وتكثيف التعاون الاقتصادي .

بسبب شغفه بالتاريخ ، ربما ، قرّر الملك فهد أن ينتقل من مشاكل الساعة إلى صفحات التاريخ . سأل كول :

- هل صحيح ما قيل إن هتلر أراد الصلح مع بريطانيا ، وإنه أرسل هيس لهذا الغرض وإن الاتفاق لم يتم لأن تشرشل سجن هيس ورفض مقابلته؟

وتحوّلت المباحثات إلى ما يشبه محاضرة في التاريخ الألماني الحديث .

- لدينا من الحقائق التاريخية ما يوضّح حكاية سفر هيس المفاجئ . كان هيس رجلاً مثالياً ذا ثقافة محدودة . كان بطبيعته بعيداً عن النزعات الدموية التي اتصفت بها الحركة النازية . كان في الصف الأول من قادة النظام إلا أنه كان في حقيقة الأمر لا يتمتّع بأي نفوذ فعلي . بعد وصول هتلر إلى الحكم لم يعد له دور يذكر في صنع القرارات . كان هيس مؤمناً بأن الصراع بين ألمانيا و الدول الغربية حماقة كبرى ، وكان يعتقد أن مصدر الخطر هو روسيا الستالينية . لقد كان من الأشخاص القلائل الذين حذّروا هتلر من دخول مواجهة مع انجلترا وفرنسا ، ولكن هتلر لم يستمع إليه . كان هتلر يتصوّر أن إنجلترا وفرنسا ستتخذان موقفاً متخاذلاً ولن تدخلا الحرب سنة ١٩٣٩م . جورنج بدوره كان يودّ تحاشي الصدام بين ألمانيا والدول

الغربية . وما قاله في محاكمته عن هذه الفترة صحيح . لقد فوجئ هتلر بقرار إنجلترا دخول الحرب . وبالنسبة لهيس كانت مثاليته تصوّر له أنه لو توسّط بين الدولتين فقد يفلح في إنهاء الحرب . كانت هناك تيارات مناوئة للحرب في بريطانيا والولايات المتحدة . كان البابا يطمح في أن يقوم بدور صانع السلام . حتى موسوليني كان يحلم في البداية بالقيام بدور مماثل . في هذه الفترة قام هيس بمغامرته . لم يكن هناك تخطيط مسبق ولا موافقة من هتلر والوثائق التي بين أيدينا اليوم تبيّن هذا بوضوح . كما أنّنا نستطيع استخلاص هذه الحقيقة من أسلوب معاملة هتلر لزوجة هيس وابنه . إلا أن بقاء هيس في السجن بعد هذه المدّة كلّها فضيحة كبرى . لقد قضى أكثر من أربعين سنة وقد جاوز عمره الآن تسعين عاماً . لقد أثرت هذا الموضوع مع أندروبوف ولكن السوفييت ليسوا مستعدّين للإفراج عنه . التنازل الوحيد الذي قدّموه هو تسليم جثّته لعائلته بعد وفاته . لقد سبق لي أن قلت لبريجنيف إن هذا موقف انتقامي غير عقلاني لا يليق بدولة عظمى .

ويبدو أن الحديث عن التاريخ راق الملك فهد ، وهو من هواة القراءة في كتب التاريخ ، ولديه إلمام جيّد بالتاريخ الإسلامي ، فعاد يسأل المستشار عن مصرع رومل والظروف المحيطة به .

وكان المستشار مستعداً للإجابة :

- كان رومل ضالعاً مع الضباط الذين حاولوا اغتيال هتلر سنة ١٩٤٤م . لم يكن هو زعيم الحركة ولكنه كان على علم

بها وبنواياها . كان الضبّاط يريدون إنهاء الحرب لأنّهم كانوا يدركون أن استمرارها يعني تغلغل الروس في الأراضي الألمانية . وقد حدث ما توقّعوه بالفعل . دارت اتصالات بين حركة الضبّاط وبين تشرشل عن طريق وسطاء سويديين اتصلوا بالسفارة البريطانية في البرتغال . إلا أن تشرشل لم يبد اهتماماً كبيراً بهذه الاتصالات . وقد اعترف في أواخر حياته بأن هذا الموقف كان من أفدح الأخطاء التي ارتكبها في حياته . أمّا عن مصرع رومل فإنّني أعرف كل تفاصيله عن طريق ابنه وهو الآن عمدة مدينة شتوتجارت في ألمانيا ، وسنّه نفس سني تقريباً . لقد أخبرني بالقصّة وهي تتفق مع ما أورده المؤرّخون . كان رومل في الجبهة في فرنسا سنة ١٩٤٤م وأصيب بجروح بسيطة ، وعاد إلى ألمانيا للعلاج ثم لزم المنزل للنقاهة بعد مغادرة المستشفى . في هذه الأثناء تمت مؤامرة ٢٠ يونيه سنة ١٩٤٤م وتمكّنت لجنة التحقيق من كشف دور رومل . كان روملاً بطلاً شعبياً أسطورياً ، وكان من الصعب محاكمته . أرسل هتلر إليه ضابطين وأبلغه أنه إذا انتحر فلن تصاب زوجته أو ابنه بأي ضرر . أمّا إذا رفض الانتحار فسوف يحاكم بتهمة الخيانة العظمى ويعدم وتعتقل زوجته وابنه . ناقش رومل الموقف مع زوجته وابنه وأخبرهما أنه يفضّل الانتحار . طلب من سائقه أن يأخذه إلى الغابة وهناك أطلق النار على نفسه .

وعاد الملك يستفسر عن صحة ما روي عن انتحار هتلر وزوجته وحرق جسديهما . وأكّد المستشار أن الرواية صحيحة

وثابتة تاريخياً .

ومع نهاية هذه الجولة في تاريخ ألمانيا النازية انتهت جلسة المباحثات الرسمية .

خلال مرافقتي لكول في تنقلاته كنت دائم الحديث معه . كان في البداية متحفظاً ولا يتحدّث إلا بحساب . إلا أنه بدأ تدريجياً في التبسّط والانطلاق على سجيّتيه :

خلال ذهابنا إلى جلسة المفاوضات فاجأني بقوله :

- لديّ سؤال أرجو أن تجيبني عليه بكل صراحة .

وتوقّعت أن يثار موضوع الدبّابات من جديد . إلا أن السؤال كان أبسط بكثير :

- لماذا يرتدي بعضكم رداء أحمر للرأس بينما يرتدي البعض رداء أبيض؟ هل هذا يدل على مكانة الشخص؟

لقد لاحظت مثلاً أن كل الأمراء باستثناء الأمير سعود الفيصل يرتدون الرداء الأبيض .

وشرحت له أن الأمر يتعلّق بالذوق الشخصي ولا علاقة له من قريب أو بعيد بموضوع المكانة .

موضوع «الغتر» البيضاء والحمراء وألوان «البشوت» يشغل بال كل ضيف أجنبي يأتي إلى المملكة . ولا أكاد أذكر ضيفاً واحداً لم يبد ملاحظة أو استفساراً عن هذا الموضوع .

قلت للمستشار :

- هل تعرف ماذا تعني كلمة الليبورد بالعربية؟ إنها تعني فهد ، وهو اسم الملك .

أطرق قليلاً إلا أنه لم يبتسم . يبدو أن قضية الدبّابات لم تكن في ذهنه مسألة مسليّة . وأخبرت الأمير سعود الفيصل الذي أخبر بدوره الملك . وقد وجد الملك الملاحظة مسليّة إلى حد الضحك .

أوضح لي كول فلسفته الاقتصادية بطريقة مبسّطة كما لو كان يتحدّث مع ناخبة ألمانيّة عجوز .

- الدولة كالعائلة بالضبط . واقتصاديات الدولة كاقتصاديات العائلة تماماً . إذا كان دخلي ألف مارك في الشهر وأنفق ثلاثة آلاف مارك فمعنى هذا أنني مضطّر إلى الاستدانة . وهذا هو بالضبط ما حصل لنا . الاشتراكيون يحاولون أن يوجدوا شيئاً من لا شيء وهذا مستحيل ، وقد نجحوا في التغرير بالناس فترة طويلة . إنني أحاول الآن تصحيح الخطأ . إنني لم أخدع أحداً ولم أقدّم حلولاً سحرية ولم أعد بالمستحيل . على العكس واجهت الشعب بكل الحقائق ، وقلت للألمان إن عليهم أن يعملوا أكثر وأكثر . إنني أعتقد أن هذا هو الموقف الأخلاقي . أمّا خداع الناس فسرعان ما ينكشف .

خلال ذهابنا إلى المؤتمر الصحفي كان بادي الانشراح . أبدى إعجابه بالزي السعودي واستطرد :

- تصوّر لو ذهبت إلى البرلمان الألماني لابساً هذا الزي[٨] .

---

(٨) رجوت المراسم أن تعد حقيبة ملأى بالثياب السعودية للمستشار . وبالفعل تم ذلك وأخذها معه . ولا أدري بطبيعة الحال أين ارتداها .

تصوّر ردود الفعل .

قلت له :

- أعتقد أن رد الفعل سوف يكون ممتازاً . سوف يكون بوسعك أن تقول لقد حاول السعوديون أن يشتروا منّي دبّابات ولكني أقنعتهم بدلاً من ذلك أن يبيعوني ثياباً .

وضحك طويلاً . وتطرّق البحث إلى الصحف . كان قبلها قد أبدى ملاحظات للأمير عبدالله انتقد فيها صحيفة «ستيرن» الألمانية الشهيرة بالإثارة . وقال إن هذه الصحيفة لا تستحق من يقرأها .

ثم قال لي :

- ما رأيك أن نضمّن البيان الرسمي هجوماً على الصحف . نقول لقد اتفق الجانبان على إعطاء الصحف كافة «تحية بيرليشنجر»؟

واحمرّ وجه المترجم بعض الشيء . وسألني إذا كنت أعرف معنى التعبير فأجبت بالنفي . وسأل المترجم ، وهو شاب عربي درس في ألمانيا ويتقن الألمانية إتقاناً جيداً ، إذا كان يعرف أصل التعبير . فأجابه بالنفي بدوره .

قال المستشار :

- ورد هذا في مسرحية شعرية لجوته . في أحد المشاهد يدرو حوار بين البطل ، واسمه ، بيرلشنجر ، وبين قسّيس . في هذا المشهد يدير البطل ظهره للقسّيس وينزع سرواله ويكشف عن مؤخّرته . إن الطّلاب يحضرون هذه الرواية ويظلّون صامتين

طيلة الوقت ، حتى إذا جاء هذا المشهد انفجرت القاعة في تصفيق شديد .

واحمرّ وجه المترجم مرّة أخرى وهو يشرح لي بالعربية أن التعبير يعني «تعال وقبّل مؤخّرتي!» . وضحكت بدوري وأنا أتصوّر بياناً مشتركاً يتضمّن دعوة للصحفيين كهذه .

ووعدني المستشار بأنه سيرسل لي المسرحية . وكان عند وعده . بعد سفره بشهر وصلني خطاب رقيق منه مع نسخة من المسرحية وقد أشّر باللون الأحمر على الصفحة التي تحتوي على التحية المشهورة . وتأثّرت بهذه البادرة . لقد تذكّر الرجل رغم مشاغله الكثيرة ، وعداً عابراً جاء خلال حديث عابر . وما أكثر أولئك الذين ينسون مثل هذه الوعود العابرة .

خلال المؤتمر الصحفي كان في إجاباته واضحاً ومحدداً . كان يجيب إجابات منطقية دون إسهاب ودون إيجاز . شرح الموقف من دبّابات الليبورد . وأشار إلى القرار بتكثيف التعاون العسكري بين ألمانيا والمملكة . وقال إن وفداً عسكرياً سعودياً سيصل إلى ألمانيا لبحث تفاصيل هذا التعاون . وكرّر الموقف الألماني التقليدي من قضية الشرق الأوسط . كان هناك سؤال واحد محرج وجّهه صحفي سعودي .

- لماذا تقدّمون مساعدات اقتصادية إلى إسرائيل؟ ألا ترون أن هذه المساعدات تمكّن إسرائيل من الاستمرار في سياستها العدوانية التوسّعية ضدّ العرب؟

ولم يفاجأ بالسؤال .

- نحن لا ننظر إلى الأمر من هذه الزاوية . إن مساعداتنا لإسرائيل هي جزء من برنامجنا في الشرق الأوسط وهو برنامج يستهدف دفع التنمية الاقتصادية في المنطقة . ونحن نقدّم مساعدات مماثلة للأردن ولمصر ولعدد من الدول العربية . لقد كنت في الأردن ورأيت بنفسي كيف نجحت المساعدة الألمانية في تحويل الأرض الجرداء إلى مزارع للخضروات والفواكه . هذا هو منطلقنا .

في السيّارة سألني عن رأيي في المؤتمر الصحفي . وأجبته ، صادقاً ، إنني أعتقد أنه كان موفقاً غاية التوفيق . سرّ لإجابتي . ومضى قائلاً :

- هناك ثلاثة شروط لكي تكون ناجحاً في تعاملك مع الصحفيين . أولاً ، أن تعرف الموضوع جيداً قبل أن تتحدّث عنه . ثانياً ، أن تكون واثقاً من نفسك تمام الثقة وألا تظهر منك أية بادرة من بوادر الضعف . ثالثاً ، أن يكون لديك قدر معقول من روح الدعابة .

بعد مراسم الوداع في المطار حاولت أن أرتّب انطباعاتي عن رجل ، كنت خلال سنوات طويلة لا أسمّيه إلا (الكرنب) - وهي ترجمة حرفية لكلمة كول بالألمانية العاميّة . كنت أتصوّر أن ذكاءه لا يختلف كثيراً عن ذكاء (الكرنب) . إلا أنني أدركت الآن أنني كنت قاسياً في حكمي . إن الرجل بمنظره الضخم ولغته العادية ولهجته العامّية لا يبهرك منذ الوهلة الأولى . إلا أنك تكتشف تدريجياً أن وراء هذا المظهر

الشعبي الكثير من الذكاء . لم يتبيّن لي صدق ما سمعته عن ضعفه وتردّده وعجزه عن اتخاذ أي قرار . كان فيما يتعلّق بكل الأمور التي بحثت خلال الزيارة بعيداً عن أي ضعف أو تردّد . كما تبيّن لي أن ما يتردّد عن جهله المطلق بالعلاقات الدولية غير صحيح ، وأن النكت التي تروى عنه في هذا المجال غير منصفة . لقد جاء الرجل من «الأرياف» ولكنني أتصوّر أن العالم سيكتشف ، كما اكتشف الناخبون في ألمانيا ، أن بوسع «الأرياف» أن تنتج رجالاً غير عاديين .

مع الأخ العقيد... في الحافلة

قال عنه أعداؤه كل ما يمكن أن يقال في إنسان . وقال فيهم ما هو أسوأ . قالوا عنه صبي ليبيا ، مجنون ليبيا ، مراهق ليبيا ، عقدة ليبيا ، الكافر ، الملحد . وهاجم بدوره الدنيا كلّها تقريباً من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار . كنت أتطلّع إلى لقاء هذا الرجل ، أوّد أن أراقبه عن كثب وأحاوره إن أمكن . هذا الرجل الذي ظلّ يقود ليبيا طيلة عقد عاصف من السنين . هذا الرجل الذي خرج بنظرية يعتقد -جازماً- أنّها ستحطّم الشيوعية والرأسمالية . هذا الرجل الذي جمع أفكاراً من هنا وهناك وتصوّر أنه نجح -لأول مرة في التاريخ- في إقامة دولة «جماهيرية» تحكمها الجماهير نفسها مباشرة وعن طريق مؤتمراتها ولجانها . هذا الرجل الذي رفض أن يرقّي نفسه كما يفعل بقية الانقلابيين العرب وظّل «مجرّد عقيد»(٩) . هذا

(٩) نتيجة هذا القرار لم يعد بالإمكان أن يترقّى أحد في الجيش الليبي إلى مرتبة تفوق مرتبة العقيد ، وبالتالي أصبحت رتبة العقيد مساوية «للمشير» في الأنظمة الأخرى! على أن العقيد يرى أن الجيوش النظامية بدعة منقولة من النصارى ، وأن الجيش الوحيد الذي يعرفه الإسلام هو الجيش الشعبي المكوّن من الشعب كلّه .

الرجل الذي يحاول «تنوير» الإسلام بطريقته الخاصّة، وتفسير السنّة بطريقته الخاصّة.

وعلاقة الأخ العقيد بالمملكة غريبة ومعقّدة. كلّما ساءت الأمور بين البلدين جاء بنفسه أو أرسل وفداً يطلب تحسين العلاقات. وكلمّا وصلت العلاقات إلى درجة معقولة من الود نسفها بنفسه وأعادها إلى مرحلة الفتور. أصبحت هذه الظاهرة ملازمة للعلاقات الليبية - السعودية منذ أول يوم من أيّام ثورة الفاتح. قال عن الملك فيصل ما لم يقل مالك في الخمر. ثم قرّر أن يجيء بنفسه ليعتذر وليطلب من «الأب» أن يغفر «لابنه العاق». بعدها بشهور قتل الملك فيصل وكانت إذاعات العالم العربي تثبت القرآن الكريم ما عدا إذاعة ليبيا. ولم يكتف الأخ العقيد بذلك فقد صرّح بعدها أنه يستغرب هذه الضجّة لمجرّد أن «تاجر بترول» قد مات.

يبدو أن شخصية الأخ العقيد لا تعرف الاعتدال فهو إما في حالة عشق عنيف أو كره صاخب. مع مصر، مع السودان، مع سوريا، مع مالطا، مع تشاد، مع فرنسا، مع إيطاليا. باختصار مع الجميع. لا يكاد العقيد يعترف إلا بنوعين من أنواع التعامل الدولي: الوحدة الفورية الاندماجية أو الحرب المسلّحة!

كانت علاقة ليبيا بالمملكة تمرّ بحالة من الفتور سنة ١٩٧٩م عندما قرّر الأخ العقيد أن يزور المملكة ومنطقة الخليج. وكالعادة طلب فتح صفحة جديدة ونسيان الماضي. كما طلب

من هذه الدول أن تشارك في احتفالات العيد العاشر «للثورة الفاتح المجيدة» . وأبدى دهشته لما شاهده من تقدّم . وقد مرّت زيارته للمملكة بسلام لولا حادثة غريبة كادت أن تعصف بالزيارة وهي في منتصفها .

أرادت زوجة العقيد أن تزور سوق الرياض مع عدد من السيّدات الليبيات من أقاربها . وأصرّ الليبيون على أن تتم الزيارة بدون مرافقين وبدون حراسة وبدون ترتيبات أمنية مسبقة . وبالفعل ذهب الليبيون ولم يكن معهم سوى مندوب واحد من المراسم الملكية . صادفت جولتهم وقت صلاة الظهر حيث تقفل الأسواق وينشط رجال «هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» في حماية الطرقات مما يعتبرونه مخلاً بالفضيلة والآداب . كانت إحدى المربيّات المرافقات لزوجة العقيد ترتدي ثوباً قصيراً بعض الشيء ، بمقاييس هيئة الرياض ، الأمر الذي أدّى بأحد رجال «الهيئة» إلى زجرها . كان مع زوجة العقيد أخوها الذي ثارت ثائرته فصبّ جام غضبه على «الشيخ» وتجمّع الناس وتكهرب الجو ، وكاد الأمر أن يتطوّر إلى مشاجرة يدوية لولا أن مندوب المراسم تمكّن من إركاب زوجة العقيد ومرافقيها السيّارات والعودة بهم إلى قصر الضيافة .

غضب العقيد غضباً شديداً واعتبر الحادثة إهانة مقصودة ، وأصرّ بأن تستعد طائرته للإقلاع الفوري . وسمع الملك خالد بالحادثة ، كما سمع بها الأمير فهد ، فأسرعا إلى قصر الضيافة

يعتذران للضيف ويؤكّدان له أن أحداً لم يعرف زوجته ولم يقصد إهانتها ، وأنه لولا إصرار الليبيين على عدم حضور رجال الأمن لما حدث ما حدث . رفض العقيد أن يقتنع أو يرضى . في نهاية المطاف قال له الملك خالد إنه لا يستطيع أن يمنعه من السفر ، ولكنه يحب أن يؤكّد له أن الشامت الأكبر إذا فشلت الزيارة سيكون أنور السادات . اقتنع العقيد بالبقاء على مضض ، ولكنه أصرّ على أن يقابل رئيس الهيئة في الرياض ليحاوره عن نظرة الإسلام إلى المرأة وإلى الحجاب . رُتب الموعد بالفعل وقضى رئيس الهيئة أكثر من ساعة في جدل مع العقيد . أشك كثيراً أن أحداً من الطرفين قد استطاع أن يقنع الطرف الآخر بوجهة نظره .

كنتيجة لهذه الزيارة تحسّنت العلاقات بين ليبيا ودول الخليج . وذهبت وفود عالية المستوى لحضور الذكرى العاشرة لثورة الفاتح (قضى الوفد السعودي برئاسة الأمير عبدالله بن عبدالعزيز وقتاً مؤلماً بين الترتيبات الفوضوية والسكن المزعج ، والاستعراض العسكري الذي استغرق قرابة عشر ساعات) . ثم بعد عدة شهور طلب العقيد من الملك خالد أن يردّ الزيارة .

كان هناك تردّد واضح في قبول الدعوة . إلا أن العقيد اتصل بالملك هاتفياً ، وكان الملك يقضي عطلة قصيرة في جنيف ، وأصرّ على حضوره . وهكذا في صيف ١٩٨٠م ذهب الملك مع وفد رسمي كبير ضمّ الأمير سلطان والأمير سلمان

والأمير ماجد والأمير سعود الفيصل والدكتور رشاد فرعون وكاتب هذه السطور .

قبل السفر كانت هناك مشكلة بروتوكولية . بعد إعلان «الجماهيرية» وتشكيل «اللجان في كل مكان» وإعطاء السلطة «للمؤتمرات الشعبية» ، وتحويل الوزارات إلى «أمانات» ، تخلّى العقيد عن كل مناصبه وألقابه الرسمية وأصبح «قائد الثورة» - لا أقل ولا أكثر- على هذا الأساس أصبح في حل من المراسم البروتوكولية فلا يستقبل أحداً ولا يودّع أحداً ولا يلتزم بمقابلة أحد . إلا أن السيد/ أحمد عبدالوهاب رئيس المراسم الملكية السعودية ، الذي قضى في عمله قرابة عشرين عاماً ، عاصر خلالها من التجارب ما جعله من أحسن رؤساء المراسم في العالم ، لم يقتنع بهذا المنطق الثوري . لقد أفهم الليبيين بطريقته الفريدة التي لا تغضب أحداً أنه إذا لم يكن الأخ العقيد في المطار على رأس المستقبلين فإن الملك لن ينزل من الطائرة . غير أنه لم يكن هناك مبرّر للتخوّف فقد كان العقيد بالفعل في انتظارنا عند سلّم الطائرة .

أعدّ العقيد حشداً من طائراته العسكرية لمرافقة الطائرة الملكية تجاوز القدر المعتاد في مثل هذه المناسبات . كنت أدعو الله كلّما رأيت إحدى المقاتلات الليبية تقترب من الطائرة الملكية أن يكون قائد المقاتلة قد تلقّى من التدريب ما يمنعه من الاصطدام «العفوي» بطائرتنا . على أرض المطار في بنغازي حشد العقيد بقية أسطوله الجوّي . كان هناك ما لا يقل عن

ثلاثمائة طائرة عسكرية صفّت الواحدة بقرب الأخرى . خطر لي وقتها أن عود ثقاب واحد يمكن أن يؤدي إلى حريق هائل يودي بكل هذه الدمى الثمينة من دمى الدمار .

كان من الواضح من اللحظة الأولى أن الاستقبال «الشعبي» مرتّب ترتيباً رسمياً . الشباب يلبسون الثياب نفسها ، ويردّدون الشعارات نفسها المنطلقة من مكبّرات الصوت . ولقد تأكّد هذا الانطباع عندما رأينا الوجوه نفسها وسمعنا الشعارات نفسها في أكثر من مكان خلال الزيارة . ويبدو أن الهاتفين تحمسّوا مع الشعارات التي يردّدونها ، وكلّها عن العقيد والثورة ، فدخلوا مع المستقبلين واختلط الحابل بالنابل وأصبح المشي مخاطرة أو كالمخاطرة . فقد أكثر من عضو في الوفد السعودي عباءته في غمرة هذه الحماسة المتشنّجة .

طلب العقيد من الملك أن «يعذره» على حرارة الاستقبال الشعبي . وأضاف أنه لا يعرف شيئاً عنه فالموضوع كلّه في يد «اللجان الشعبية» في بنغازي . وأضاف العقيد أنه لا يتدخّل في أعمال «اللجان الشعبية» لا من قريب ولا من بعيد .

وهنا دار بين الرجلين هذا الحوار الطريف :

- يا فخامة الرئيس . هل الحكومة الآن في بنغازي؟

- الحكومة؟ ليست لدينا حكومة . لقد ألغينا الحكومة . والحكم الآن للجماهير عن طريق المؤتمرات واللجان .

- والوزراء؟ هل هم هنا؟

- الوزراء؟ ليس لدينا وزراء . لقد ألغينا الوزارات . لا توجد

الآن سوى أمانات منبثقة من المؤتمرات الشعبية .

- وأنت؟ أين تتواجد هذه الأيام . أنت «وخوياك»؟[١٠] .

- في بنغازي .

- اذن فالحكومة في بنغازي! لماذا لم تقل لي هذا من البداية؟!

العلاقة غريبة بين هذا الشيخ المتديّن المحافظ الذي يقترب من السبعين والثوري الشاب الذي لم يبلغ الأربعين . فيها من الجانبين قدر مما يسمّونه بالإنجليزية الحب/ الكره . فيها ، وإن أنكر الطرفان ، شيء من الإعجاب المكتوم . لعلّ العقيد كان يرى في الملك ملامح من شخصية أبويه . ولعلّ الملك كان يرى في العقيد ابناً ضالاً يمكن بشيء من الصبر هدايته إلى سواء السبيل . ثم إن هناك كرههما العميق المشترك للسادات .

رغم أن الملك خالد لم يكن من المتمسّكين بحرفية البروتوكول ، إلا أنه كان يصرّ على مناداة العقيد «فخامة الرئيس» . من ناحية لم يستعمل العقيد كلمة «جلالة الملك» على الإطلاق . كان يناديه «الملك خالد» . وعقدة العقيد من الألقاب قديمة ومعروفة . فقد أثار ثائرة الملك الحسن الثاني ملك المغرب في أول مؤتمر قمّة يحضرانه معاً عندما أصرّ على أن يناديه «يا أخ حسن»!

نزل الملك في قصر الضيافة ، وهو مبنى صغير قديم في

---

(١٠) «خوياك» باللهجة السعودية الدارجة تعني «رفاقك» .

أطراف بنغازي ، ونزلنا نحن في الفندق الرئيسي في بنغازي وهو طلل تاريخي عاصر أكثر من حرب عالمية . كان التيلفون لا يعمل . ولا توجد في الفندق خدمة للغرف . وفي المساء اكتشفنا أن المكيّف معطّل فاضطرّ كل واحد منّا أن يسحب سريره وينام في البلكونة الصغيرة المطلّة على الميناء . غير أننا تقبّلنا الوضع بروح فلسفية إذ لم يكن أحد منّا يتوقّع أن يعثر على واحة من واحات الرفاه السياحي في ليبيا الثورة .

خلال الاجتماعات الرسمية أبدى الأخ العقيد رغبته الأكيدة في تكثيف العلاقات بين البلدين إلى أقصى حد ممكن . طالب بتنسيق تام في السياسة الخارجية . ومشروعات اقتصادية مشتركة . ولجان تنظّم التعاون السياسي والاقتصادي . وتسويق مشترك للمنتجات البتروكيمائية . هذه النقطة الأخيرة أثارت رعبي الشديد . في اجتماع جانبي ترأسه الرائد عبدالسلام جلّود من الجانب الليبي والأمير سلطان من الجانب السعودي اضطررت إلى أن أعارض فكرة التسويق المشترك .

«هناك ثمة صعوبة فيما يخص التسويق المشترك . لقد أقمنا جميع مشاريعنا الصناعية بالمشاركة مع شركات عالمية تملك التقنية وتملك منافذ التسويق . نحن لم نختر هذا الأسلوب حباً في هذه الشركات أو هياماً بالاحتكارات الدولية ولكن من منطلق علمي واقعي . بدون هذه الشركات يصعب

الحصول على التقنية ويستحيل التسويق في عالم بدأ يشكو التخمة من البتروكيمائيات. لقد طلبت من كل مؤتمر من مؤتمرات وزراء الصناعة العرب أن نحسب حساب التسويق قبل البدء في الإنتاج ولكن أحداً لم يستمع».

كان الأمير سلطان يدرك أن طبيعة العلاقات السعودية/الليبية لا تسمح بشيء من هذا العناق الحار. إلا أنه عالج الموضوع بدبلوماسيته الشهيرة. طمأن الجانب الليبي إلى أن المملكة ترحّب بالتعاون الوثيق في كل المجالات السياسية والاقتصادية. واقترح أن يتم الاجتماع الأول للجان المشتركة في المملكة. إلا أنه نظراً «لزحمة الحج» فإنه يقترح تأجيل الاجتماع إلى فترة ما بعد الحج. وكما توقّع الأمير سلطان وتوقّعنا، وربّما كما توقّع الليبيون أيضاً، مرّت الأيّام وانقضى موسم الحج ولم تجتمع لجان ولم يتم تنسيق.

خلال المباحثات الجانبية كان هناك إصرار غريب من الجانب الليبي، يطفو مرّة بعد مرّة على سطح النقاش، على قطع البترول عن الولايات المتحدة وعلى سحب الأرصدة. كان الليبيون يردّدون هذه المطالب بطريقة تلقائية لا تتيح مجالاً للنقاش. من جانبنا كنّا نحاول أن نشرح أن قطع البترول وسحب الأرصدة ما لم يكن جزأً من استراتيجية عربية عسكرية سياسية اقتصادية واحدة فإنه سيكون عملاً عشوائياً يهزم أهدافه. غير أن أحداً في الوفد السعودي لم يقل لليبيين إننا على علم تام بالاتصالات التي يجرونها مع الولايات

المتحدة لتوطيد علاقتهم بها في اللحظة نفسها التي كانوا يطالبوننا فيها بقطع البترول عنها . ولم يقل أحد منا لليبيين إننا نعلم أنه خلال الحظر البترولي رفضت ليبيا الالتزام بهذا الخطر . إن النقاش عندما يدور على مستوى الشعارات ، والشعارات وحدها ، يتحوّل إلى عملية مؤلمة وعقيمة . ولقد كان هذا شأن نقاشنا مع الأخ عبدالسلام جلّود ورفاقه .

وعبدالسلام جلّود رجل ينطبق عليه المثل الشهير «سماعك بالمعيدي خير من أن تراه» . رجل لا يتحدّث إلا بانفعال ، ويلقي بالكلام على عواهنه ، ويعتبر كل لفظ يتفوّه بها خلاصة الحكمة ، ولا تكاد تمضي في الحديث معه دقائق معدودة حتى تجد أنه من الصعب عليك أن تأخذه مأخذ الجد .

كان يحاول أن يقنعني بصواب نظرية الأخ العقيد في أن «البيت لساكنه» . وقد اتخذ الحوار بيني وبينه شكلاً لا يخلو من غرابة .

بدأ بالقول :

– مثلاً هل يجوز أن يعيش إنسان دون سكن ويملك الدكتور/ غازي القصيبي عشرة ملايين دولار؟!

– ولكن الدكتور غازي القصيبي لا يملك عشرة ملايين دولار!

– هذا مجرد مثل . مجرد مثل .

– فلنغيّر المثل إذن ولنقل هل يجوز أن يعيش إنسان دون سكن ويملك الرائد عبدالسلام جلّود عشرة ملايين دولار .

- ربما كان من الأفضل أن نتحدّث بدون ضرب أمثال .
وهذا ما كان .

وأعترف أنني بعد أن اكتشفت فيه صفة السذاجة المنفعلة أو الانفعال الساذج كنت أحرص على استشارته . مرّة سألته وبدون أية مقدّمات :

«يا أخ عبدالسلام لماذا قتلتم موسى الصدر؟» .

وكانت إجابته زوبعة مدويّة صاخبة من الإنكار تخلّلتها صيحات منكرة وإشارات عنيفية جعلت منظره مسلياً للغاية .

ومرّة أخرى سألني :

- لماذا لا يثق جعفر نميري بنا؟ إننا نحاول جاهدين تحسين علاقتنا معه ولكن يرفض . لماذا؟

- يا أخ عبدالسلام هل نسيت؟! لقد دبّرتم ضدّه انقلاباً رهيباً لم يفلت منه إلا بالصدفة وحدها . هل تلومه إذا فقد الثقة بكم؟

- صحيح . إنا «درنا عليه انقلاب» . ولكننا اعتذرنا له بعد ذلك . ألا يكفي هذا؟

لم يكن الرائد يمزح . كان يتحدّث بجدّ . بإمكانك أن «تدير» اليوم انقلاباً على رئيس دولة مجاورة يقتل فيه المئات وتسفك الدماء البريئة وتنفق الأموال الطائلة . ثم يفشل الانقلاب . فتعتذر منه . وتبدآن صفحة جديدة من الوئام والمحبّة . هكذا يفكّر الأخ الرائد . ولله في خلقه شؤون!

في المساء أقام لنا الأخ العقيد حفلة عشاء رسمية . وكان

أنيقاً غاية الأناقة في ثوبه الأبيض وهو خليط عجيب بين بذلة العشاء الغربية والرداء الصيني الثوري المعروف . كان الاتفاق ألا تكون هناك كلمات . إلا أننا فوجئنا في نهاية الاجتماع بخطبة طويلة من الأخ العقيد استمرّت أكثر من نصف ساعة . لم يخصّص للترحيب بنا سوى جمل قليلة انتقل بعدها إلى خيانة السادات وسقوط «الخندق» المصري ، وخصّص بقية الخطاب لهجوم عنيف على الولايات المتحدة وعلى ليبيا والمملكة العربية السعودية ، لأنهما تزوّدان الطائرات الأمريكية التي تقصف الفلسطينيين بالبترول . واستشهد في خطابه بعدّة آيات من القرآن الكريم . لم يكن في المضمون جديد ولكني فوجئت بطريقته في الحديث . كانت هذه هي المرّة الأولى التي أستمع فيها إلى خطاب كامل من العقيد ، والمرّة الأولى التي أراه فيها يلقى خطاباً . كان يتحدّث مرتجلاً وبدون ورقة أو رؤوس أقلام ، وينتقل من نقطة إلى نقطة بتسلّسل منطقي واضح . كان يتحدّث بهدوء ، دون أدنى أثر للانفعال ، ودون الحركات العنترية التي تلازم الخطباء ، والعرب منهم بصفة خاصّة . كان الفرق بين عنف المضمون وهدوء الأسلوب يثير الدهشة . مهما قيل عن جنون الأخ العقيد فإن المجنون «التقليدي» لا يستطيع أن يعبّر عن نفسه بهذا الوضوح وهذا الهدوء . وكأنّما أحسّ العقيد أنه بإلقاء الخطاب خالف الاتفاق الذي تم عند تنظيم برنامج الزيارة بألاّ تكون هناك خطابات . فقام مرّة أخرى بعد جلوسه وقال «لقد كان هذا الخطاب ترحيباً من جانبنا بالملك

خالد ولكننا نعفيه من الرد» . وهكذا كفى الله المؤمنين القتال .

أغرب ما لاحظته خلال الزيارة هو افتقار العقيد إلى الشعبية بين الجماهير . المفروض في زعيم ثوري شاب مثله أن يثير الكثير من الحماسة ولو بين فئات معيّنة من الشعب . إلا أنني لم أر ما يدل على ذلك . في كل مكان نذهب إليه كنّا نرى مجموعة المطار : الشعارات نفسها والوجوه نفسها . قطعنا في صحبة العقيد مئات الكيلومترات ولم نجد أية جموع أو جماهير .

في ثاني أيّام الزيارة اصطحبنا العقيد في رحلة طويلة إلى الجبل الأخضر وهو مشروع زراعي ضخم أقامه الإيطاليون وتحوّل إلى مشروع حكومي ثم وزّعه العقيد على الفلاّحين على أساس أن «الأرض لزارعها» . في آخر لحظة ارتأى العقيد أن نستقل حافلة بدلاً من السيّارات الصغيرة . وهكذا أتيح لنا أن نقضي أكثر من ثلاث ساعات في نقاش يرق ويعنف مع الأخ العقيد . لم يكن في الحافلة سوى الأعضاء الرسميين في الوفدين ، الأمر الذي أتاح لنا أن نتحدّث بحريّة وانطلاق . وكانت هذه التجربة أمتع ما في الزيارة .

بدأت الرحلة بمجموعة من الأوامر السريعة المتلاحقة وجّهها العقيد إلى عبدالسلام جلّود .

- عبدالسلام! «دير قهوة وشاهي»!

- عبدالسلام! «أخبر الشرطة ألا يسرعوا»!

- عبدالسلام! «ما قلت لك دير قهوة وشاهي»؟

- عبدالسلام! «قل للشرطة أن يمشوا بدون إطلاق الصفّارة»!

- عبدالسلام!

وكان الأخ الرائد يقفز ويعود إثر كل أمر من هذه الأوامر. وكانت لهجة العقيد جارحة لا يستطيع الرجل المهذّب أن يستخدمها مع خادم في منزله. كان من الواضح أن الأخ الرائد ليس شريكاً في السلطة ولكنه مجرّد ظل لصاحب السلطة. وكان من الواضح أن قادة الثورة الآخرين هم بدورهم مجرّد ظلال باهتة للأخ العقيد. شعرنا جميعاً بالحرج ونحن نرى هذا الأسلوب في المعاملة حتى إن الملك خالد تدخّل لمواساة الأخ الرائد.

- يا أخ عبدالسلام. شكراً. خادم القوم سيّدهم.

خلال هذه الرحلة أتيح للأخ العقيد أن يتحدّث عن الكثير من أفكاره ونظرياته. بدأ برايه في السنّة النبوية. وكان الملك خالد حريصاً على أن يسمع منه شخصياً تكذيباً لما بلغه من إنكاره لحجيّة السنّة. ولعلّني لا أبالغ إذا قلت إن هذا الموقف الديني من جانب القذّافي أزعج الملك أكثر من أي موقف سياسي اتخذه العقيد ضد المملكة. إلا أن العقيد لم ينكر بل أوضح!

«أنا لم أنكر السنّة كلّها. أنا آخذ بالسنّة العملية. كل مسائل الصلاة والصيام والحج والزكاة مما كان الرسول يفعله أمام

المسلمين كلّهم أنا أعترف به . ولكنني لا آخذ بالسنّة القولية . أكثر الأحاديث المنسوبة إلى الرسول ملفّقة ومزيّفة وكتبت بعد وفاته بمدة طويلة . كيف يمكن الاعتماد عليها؟ أمامنا القرآن . أنا لا أعترف إلا بالقرآن . لا أناقش إلا بما جاء في القرآن» .

وانبرى السعوديون للردّ . وكان أفصحهم الشيخ ناصر الشتري إمام الملك ورفيقه الدائم ومستشاره في الشؤون الشرعية . إلا أن الأخ العقيد لم يقتنع .

ثم خرج علينا العقيد برأي «قذّافي» آخر :

- «في القرآن إشارات ودلالات إلى أن الإسلام هو دين العرب وحدهم . محمد كان عربياً ، والقرآن نزل بلسان عربي للعرب . الإسلام لا يصلح إلا للعرب والعرب لا يصلحون إلا للإسلام . وبالتالي يجب أن يكون العرب جميعاً مسلمين ، أمّا غير العرب فلا ينبغي أن يكونوا مسلمين . إن أي مسلم غير عربي هو شعوبي مخادع لم يدخل في الإسلام إلا للكيد له» .

وهنا انطلق الشيخ ناصر الشتري في محاضرة طويلة معزّزة بالقرآن الكريم والأحاديث النبوية مؤداها أن الإسلام للبشر جميعاً . إلا أن الأخ - العقيد رفض أن يتزحزح عن موقفه .

سألته :

- ماذا إذن عن الخميني وثورته في إيران؟

كان الجواب مفاجأة صاعقة :

- الفرس كلّهم مجوس . شعوبيون ومجوس . كانوا وما

زالوا . والخميني لا يختلف عنهم .

العقيد يعلن جهاراً نهاراً أن الثورة الليبية والثورة الإيرانية أختان شقيقتان ويقدّم سائر أنواع الدعم إلى إيران[١١] وهو يعتقد في قرارة نفسه أنهم «مجوس وأعداء للإسلام» .

انتقل الحديث بعد ذلك إلى تعدّد الزوجات :

«تعدد الزوجات مبدأ لا يعرفه الإسلام . ولا يعرفه القرآن . اقرأوا النص القرآني ﴿وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء . . .﴾ . هذه الرخصة مقصورة على الفتيات اليتيمات اللواتي يتربيّن في حضانة رجل يودّ حمايتهن عن طريق الزواج بهن . فيما عدا ذلك لا يجوز التعدّد مطلقاً» .

يبدو أن الأخ العقيد لم يقرأ ما كتبه المفسّرون حول عبارة «وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى» . أو قرأه ولم يقتنع به . وانقض الشيخ ناصر كعادته على الأخ العقيد . وكان الملك خالد يتابع النقاش وهو يبتسم وكأنه يستغرب «ضلال» هذا الابن العنيد . في النهاية قال العقيد للشيخ ناصر :

«كيف أتناقش معك؟ أنت رجل رجعي دماغك «متكلس» تبحث عن تبرير لزوجاتك الأربع ، وأنا رجل ثوري متحرّر أنظر إلى الإسلام نظرة ثورية متحرّرة» .

---

(١١) خلال الحرب الإيرانية/ العراقية تطوّر الدعم الليبي لإيران إلى تزويدها بكميات هائلة من المعدات العسكرية .

وبهذا التصريح الثوري توقّف النقاش في تعدّد الزوجات، وانتقلنا إلى نقاش شائك جديد: الاشتراكية في الإسلام.

العقيد يصرّ على أن الإسلام نظام اشتراكي، واشتراكي بالطريقة التي يفهمها هو: البيت لساكنه وشركاء لا أُجراء. والسعوديون يرون أن هذه هي نظرة العقيد لا نظرة الإسلام. وتطوّر النقاش وتشعّب. وكانت هناك اتهامات صريحة ومبطنة من الجانبين. وكنت حريصاً على أن أستوعب آراء العقيد وأستمع إلى المزيد منها ولهذا لم أدخل في الحوار الاقتصادي.

قال له الأمير سلمان:

- إذا سلّمنا بنظرية شركاء لا أُجراء وهي أن المصنع يجب أن يكون للعاملين فيه، فماذا نفعل بمرافق البترول وهي ملك الأمّة كلّها؟ نملّكها للعاملين فيها.

- هذا وضع استثنائي.

- ومصانع الحديد والصلب؟

- هذا وضع استثنائي أيضاً.

قال له الملك خالد:

- لديّ في مزارعي أكثر من ألف مزارع من جميع أنحاء الدنيا وأنا بالتأكيد لا أنوي مشاركتهم!

بدبلوماسية غير معهودة ولا متوقّعة ردّ العقيد:

- لا. هذا الوضع يختلف. هؤلاء أجانب وأبناء سبيل. وفي توظيفهم إحسان إليهم. أنا أتحدّث عن المواطنين.

جرّنا الحديث إلى نظرية العقيد الثالثة وكتابه الأخضر. لو

لم أكن جالساً على مقربة من العقيد أستمع بأذني إلى كل كلمة قالها لما صدّقت أنه يملك جرأة كهذه :

- نظريتي هي طريق المستقبل . لا للعرب والمسلمين فحسب بل للعالم الثالث كلّه وللبشرية كلّها . لقد أفلست الشيوعية وانكشف إفلاسها . أفلست الرأسمالية وانكشف افلاسها . لم يبق إلا النظرية الثالثة . الشيوعيون أصيبوا بذعر شديد عندما ظهر الكتاب الأخضر . أدركوا أن الماركسية مقضي عليها بالفناء وأنّها ستنتهي على يد نظريتي . ستثبت الأيّام لكم ذلك .

تذكّرت الشعارات المأخوذة من الكتاب الأخضر والتي تملأ كل ميدان وشارع في جماهيرية العقيد . «اللجان في كل مكان» «البيت لساكنه» «النظام النيابي تزييف انتخابي» «في الحاجة تكمن الحرية» . أمّا أطرف هذه الشعارات على الإطلاق فشعار «لكل راكب مركوب» . وتفسيره -بصرف النظر عن تأويلات الخبثاء من الرجعيين والرأسماليين- أن لكل مواطن الحق في تملّك وسيلة المواصلات المناسبة!

وتذكّرت المؤتمر الذي انعقد قبل فترة في ليبيا وحضره مندوبون من مختلف أنحاء العالم لمناقشة الكتاب الأخضر . قال لي صديق ليبي إن عشرات المدعويين من أساتذة جامعيين وصحفيين وكتّاب قضوا أسبوعين يبحثون النظريات التي تضمّنها الكتاب . في النهاية فاجأهم الأخ العقيد بزيارة من زياراته الليلية (بعد منتصف الليل) ليقول للمجتمعين إنّهم في

وادٍ والكتاب الأخضر في وادِ . وقال إنه من الآن فصاعداً سوف يتولّى شرح الكتاب بنفسه ولن يعتمد على أحد .

تذكّرت هذا كلّه فسألته :

- فخامة الرئيس . هل انتهت أجزاء الكتاب الأخضر أم أن هناك بقية؟

- الكتاب الأخضر عالج ثلاث معضلات : المعضلة الاجتماعية . والمعضلة الاقتصادية . والمعضلة السياسية . ووُضعت لها الحلول . لقد انتهى الكتاب نفسه . ولكن بقيت الشروح والهوامش .

- ومن سيكتبها؟

- أنا .

في الحافلة ظلّ النقاش مستعراً بين الأخ العقيد ، بمفرده ، من ناحية ، وبين أعضاء الوفد السعودي ، مجتمعين ، من ناحية أخرى . وكان الموضوع هذه المرّة حول التقويم الإسلامي الذي غيّره العقيد فجعله يبدأ بوفاة الرسول عليه الصلاة والسلام لا بهجرته . شرح لنا العقيد نظريته :

في تاريخ كل إنسان حدثان رئيسيان : ميلاده ووفاته . هذان هما أهم تاريخين وما عداهما لا يهمّ كثيراً . هجرة الرسول من مكّة إلى المدينة حدث إقليمي بحت قد يهمّكم أنتم في المملكة ولكنه لا يهمّ التاريخ . لا يهم التاريخ إلا الميلاد والوفاة . ولقد أرّخ المسيحيون بميلاد المسيح فينبغي أن نخالفهم فنؤرّخ بوفاة الرسول .

علا احتجاج الوفد السعودي يتقدّمهم ، بالحجج الشرعية والتاريخية ، الشيخ ناصر الشتري . وبينما كان النقاش محتدماً كنت في شبه ذهول . كيف خفيت الأبعاد النفسية والسياسية والاجتماعية والتاريخية للهجرة على العقيد؟ . كانت الهجرة «مولد» أول مجتمع إسلامي في التاريخ . خطر لي وقتها أن نصف المتعلّم أخطر من الجاهل . والعقيد فيما يخص الشؤون الإسلامية ، لم يتجاوز مرتبة نصف المتعلّم .

العقيد لا يزال متشبثاً برأيه :

- من الذي أرّخ بالهجرة؟ هل هناك نص في القرآن؟ هل أمر به الرسول؟ إنه اجتهاد من عمر بن الخطّاب . مجرّد اجتهاد . وعمر بن الخطّاب حاكم مسلم وأنا حاكم مسلم وله اجتهاده ولي اجتهادي .

قال الملك خالد مذهولاً :

- أنت مثل عمر بن الخطاب؟!

في وسط الوجوم الذي خيّم على الجميع إثر هذه المقارنة بين عمر بن الخطّاب والأخ العقيد ، حسم العقيد القضية كعادته «الأيّام بيننا - سوف ترون . خلال عشر سنوات لن يكون هناك إنسان في العالم الإسلامي يأخذ بالتاريخ الهجري . سوف يتّبع جميع المسلمين تقويمي» .

ثمة حقيقة أكيدة اتضحت لي خلال النقاش . كل الأفكار التي يردّدها العقيد تنبع من العقيد في شكلها وموضوعها . لا أعتقد أن هناك صحّة لما يتردّد أحياناً أن العقيد يردّد كالببغاء ما

يُعّد له من نظريات «ومقولات» . لا شك أن للعقيد عقلاً لا يخلو من أصالة وتحرّر ومغامرة . ولو أتيح لهذا العقل قدر أكبر من الثقافة والانضباط لتغيّر تاريخ الثورة الليبية ، وربّما تاريخ العالم العربي .

بعد العودة إلى بنغازي لم أستطع مقاومة الرغبة في مداعبة العقيد . كان ينتظر سيّارته ونحن بقربه عندما قلت له :

- يا فخامة الرئيس هل لا زلت تركب «الحمامة»؟

كنت أشير إلى قصّة من قصص العقيد في أوائل الثورة . ترجم كلمة «بيجو» - سيّارته - إلى العربية . وبدأ أحد اجتماعاته قائلاً :

- لقد أتيت الآن على «حمامتي»!

ضحك العقيد وقال :

- يا أخي يبدو أنّك متتبع لتاريخي .

ولم أنكر التهمة ولم أتبرأ من الشرف!

في مرة ثانية قلت له إن هناك خطأ لغوياً في شعار من الشعارات الخضراء .

- كيف؟

- أنت تقول «في الحاجة تكمن الحرّية» وتقصد بذلك أن الشخص المحتاج لا يمكن أن يكون حراً .

- هذا هو المقصود .

- غير أن كلمة «تكمن» لا تؤدي هذا المعنى . «تكمن» تعني أن الحريّة موجودة ولكنها غير ظاهرة . «كمن» الشيء أي

اختفى عن الأعين رغم وجوده . ومن هنا جاء قولهم «كمين» . وقول الشاعر «ككمون النار في الحجر» . أقترح استخدام كلمة أخرى مثل «تزول» أو «تنعدم» .

بدا على محيّا العقيد شيء من الضيق ولم يقل شيئاً . لقد سمع العقيد الكثير من الاعتراضات على الكتاب الأخضر . ولكن هذا ، فيما يبدو ، كان أول نقد لغوي .

إيمان العقيد بكتابه الأخضر ظاهرة تستدر العجب والرثاء معاً .

قال مرّة :

- سمعت أن الناس في المملكة يتخاطفون الكتاب الأخضر . عشرات الآلاف من الناس . وأكثر من يطلبه الفتيات .

ولم أقل شيئاً . ولم يقل أحد ممّن سمع الملاحظة شيئاً . ماذا سيكون شعور العقيد لو أدرك أن عدد الذين قرأوا الكتاب الأخضر في المملكة لا يتجاوز الخمسين ، أو المائة في أفضل الأحوال؟

طيلة الزيارة كنت أفكّر : هذا الرجل الغريب ما سرّه؟ ما الذي يجعله يتحرّك ، كما يقول التعبير الإنجليزي؟

من مراقبتي الدائمة له ، من حرصي على سماع كل كلمة تلفّظ بها ، من استقرائي لتصرّفاته وتصرّفات من حوله ، أيقنت أن هناك مفتاحاً أساسياً للدخول إلى شخصيته بكل تعقيداتها ومتناقضاتها وأبعادها . الطموح ، الطموح المحترق ، الطموح

الأعمى ، الطموح غير المحدود .

العقيد يعادي بدافع من طموحه ؛ ويصادق بدافع من طموحه ؛ يتّحد بسبب طموحه ؛ وينفصل بسبب طموحه ؛ يتآمر ويدبّر القلاقل والاضطرابات بدافع من طموحه ؛ يتناقض مع نفسه بدافع من طموحه .

ما هو طموح العقيد؟

ببساطة يريد أن يكون زعيم العالم الثالث كلّه ، لا زعيمه السياسي فحسب بل معلّمه الروحي والفكري .

هذا سبب حرصه على التدخّل في أوغندا وفي تشاد وفي أيرلندا وفي شؤون الهنود الحمر .

«الجماهيرية» و«الكتاب الأخضر» و«النظريات الثالثة» ، أفكار ولدت على مهد الطموح . كل تصريحات العقيد السياسية من مواليد الطموح . كل اجتهادات العقيد الإسلامية من مواليد الطموح .

أمّا أولئك الذين يعتقدون أنه «مجنون» أو «مراهق» أو «معقّد» نفسياً فيتجاهلون حقيقة لا يحتاج المرء إلى أكثر من دقائق في الحوار معه لكي يكتشفها ؛ وهو أنه يتحدّث مع رجل حاد الذكاء لا يبدو عليه أدنى دليل على الاختلال العقلي أو الاضطراب النفسي .

على أنه يتبقى هناك سؤال مهم :

«ألا يعتبر الطموح ، عندما يصل هذا الحد من العنف ، نوعاً من أنواع الجنون؟» .

لا بل إن لنا أن نطرح السؤال بصيغة أخرى :

«ألا يعتبر الطموح ، عندما يصل هذا الحد من العنف ، أخطر أنواع الجنون» .

سؤال يردّ عليه الكثيرون بالإيجاب :

في مطار بنغازي ، وضع الملك خالد يده في يد العقيد . في تحية مشتركة «للجماهير» .

عندما تحرّكت الطائرة نظرت إلى العقيد من النافذة ، وكان يقف ببذلته البيضاء شامخاً معتداً بنفسه ، وبثورته ، وبنظريته .

شعرت بشيء يشبه الشفقه . ربّما لأنني أحسست أنه كان بإمكان العقيد أن يكون رجلاً عظيماً!

على مائدة الملكة... أخيراً!

تربطني بلندن ذكريات كثيرة عزيزة . فقد قضيت فيها ثلاث سنوات أحضّر للدكتوراه بجامعتها . وقد زرتها ، قبل ذلك وبعده ، مرّات عديدة . ولندن لم تعد مدينة الضباب ، كما كانت تسمّى قديماً ، فقد نجح سكّانها في تطهيرها من التلوّث الذي كان يلف معظم لياليها بثوب داكن مثل «شوربة البازلاّء» . لقد قال شاعر إنجليزي إن لندن هي «جوهرة المدائن» . وقال كاتب إنجليزي آخر عنها «عندما يسأم الإنسان من لندن يكون قد سئم الحياة نفسها» .

على أن حديثي هنا ليس عن لندن المدينة ، بذكرياتها المزدحمة المصطخبة ، فلهذا الحديث موضعه شعراً ونثراً . حديثي هنا عن تجاربي المباشرة مع لندن ، العاصمة السياسية . وغنيّ عن الذكر أن هذه التجارب كانت محدودة ومتقطّعة بطبيعتها . وهي ، في مجموعها ، لا تلقي سوى بصيص ضئيل من الضوء على العلاقات البريطانية السعودية في الفترات التي عايشتها معايشة شخصية .

لم يكد يصدر قرار تعييني وزيراً للصناعة والكهرباء في

خريف سنة ١٩٧٥م وإلا وأبلغت أنّني سأصحب ولي العهد الأمير/فهد في زيارته الرسمية لبريطانيا . وقد بدأت هذه الزيارة بأزمة بروتوكولية . تساءلت المراسم السعودية عن المسؤولين البريطانيين الذين سيستقبلون ولي العهد في المطار . وردّت المراسم البريطانية أنه سيكون هناك مندوب عن الملكة ومندوب عن رئيس الوزراء . وردّت المراسم السعودية أن هذا الترتيب ليس مرضياً ، فلابدّ أن يكون رئيس الوزراء في استقبال ولي العهد . وردّت المراسم البريطانية أن البروتوكول البريطاني يمنع تواجد رئيس الوزراء في المطار . وأجابت المراسم السعودية أن البروتوكول السعودي يحتّم هذا التواجد . وكادت الزيارة أن تلغى . ثم وافق البريطانيون وكان هارولد ويلسون في المطار مع ابن عم الملكة . بعد الزيارة بسنوات قرأت كتاباً ألّفه أحد مساعدي ويلسون وتحدّث فيه بالتفصيل عن الأزمة والنقاش العنيف الذي دار في ١٠ دوانج ستريت ، مقرّ رئيس الوزراء ، والذي انتهى ، كما يقول الكاتب بحسرة ، بالخضوع لضغوط «الزيت» .

لابدّ أن أقول للأمانة التاريخية إنني أصبت بقدر غير قليل من خيبة الأمل في هارولد ويلسون . كان الرجل ، بصرف النظر عن رأي المرء في سياساته ، معروفاً بالذكاء وسعة الاطّلاع . بل إنه بزغ في صفوف حزب العمّال كالشهاب ، وجرى جرياً إلى القمّة على أساس عبقريته الواضحة ونبوغه المبكّر . كان في البداية (الطفل المعجزة) في الحزب . إلا أنني خلال هذه

الزيارة لم ألحظ أثراً لعبقرية أو نبوغ . كان يبدو مرهقاً سريع الضجر . ولابدّ أن أضيف أن ويلسون خلال تلك الفترة لم يكن في أوج تألّقه . يبدو أنه أصيب بالفعل بالضجر من أعباء منصبه . بعد الزيارة بفترة لم تصل إلى السنتين استقال فجأة من رئاسة الوزارة وسط دهشة شديدة من أصدقائه وأعدائه على حدّ سواء ، وكان السبب الوحيد الذي أبداه هو وصوله إلى سن الستين . إن أحداً لا يستطيع أن يجزم حتى الآن بالدوافع الحقيقية وراء هذه الاستقالة المفاجئة ، ولكنني لا أستبعد أن يكون الملل -مجرّد الملل- من أعباء المنصب هو السبب الوحيد . قرأت في أحد كتب ويلسون رأيه أن من الإجرام في حق أي شخص أن يعيّن وزيراً للخارجية أو وزيراً للمالية فترة تتجاوز سنتين ، نظراً للضغوط الهائلة التي يتعرّض لها شاغل هذين المنصبين . ولعلّ له رأياً مماثلاً في منصب رئاسة الوزارة لم يبده في كتابه!

كان ويلسون خلال الزيارة حريصاً غاية الحرص على أن يروّج للشركات البريطانية وللمنتجات البريطانية . كانت المملكة على أعتاب خطّتها الخمسية الثانية ، وكانت المبالغ المرصودة لمشاريع التنمية مبالغ خيالية سال لها لعاب العالم بأكمله . كرّر ويلسون في كل اجتماع أن بريطانيا تودّ أن تكون «في الدور الأول» من عملية التنمية . وحتى في الخطاب الذي ألقاه في مأدبة العشاء الرسمية التي أقامها للأمير كرّر التعبير أكثر من مرّة . في النهاية أخذت أتساءل بيني وبين نفسي عن

سرّ إعجاب ويلسون بهذا التعبير إلى الدرجة التي جعلته يكرّره على هذا النحو المملّ . وهل خلت اللغة الإنجليزية من تعابير أخرى تؤدّي المعنى نفسه .

كما لفت نظري أن ويلسون خلال الاجتماعات كلّها كان يحتسي كؤوساً من البيرة (الدافئة) . وأعتقد أن المباحثات مع ويلسون كانت المباحثات الرسمية الوحيدة التي شهدتها ، والتي وضع فيها على طاولة المباحثات ، بالإضافة إلى زجاجات المياه المعدنية والمرطبّات المعتادة ، عدد لا بأس به من زجاجات البيرة . كان ويلسون المستهلك الوحيد .

ثم جاءت دعوة الملكة للأمير . أخبرتنا المراسم البريطانية أن الدعوة ستكون قاصرة على أعضاء الوفد من الأسرة المالكة . كان مع ولي العهد ابن عمّه الأمير/ محمد بن عبدالله بن عبدالرحمن ، والأمير/ سعود الفيصل ، بالإضافة إلى محمد أبا الخيل وكاتب هذه السطور . كان معنى ذلك ، بلباقة ، أننا أبا الخيل وأنا ، غير مدعوين للحضور . وهذا ما كان . ولا أدري حكمة هذا التصرّف . وهل كان من الصعب إضافة مقعدين آخرين ودعوة الوفد الرسمي بأكمله .

بعد ذلك كان لقائي الرسمي الثاني بلندن في ربيع سنة ١٩٧٦م . كنت في طريقي إلى الولايات المتحدة ونويت الوقوف في لندن بضعة أيّام في زيارة عمل . علم وزير التجارة الخارجية البريطاني عن طريق السفارة في جدة ببرنامجي ، وأصرّ على أن أكون ضيفه خلال الزيارة ووافقت . قبل وصولي إلى لندن بأيّام

قليلة وصلتني رسالة منه يعتذر فيها لاضطراره إلى السفر خارج بريطانيا أثناء الزيارة ، ويخبرني أن زميله وزير الصناعة سيكون مضيفي ، ويرجو أن أقبل هذا التغيير الذي حتمّته أسباب قهرية . وقبلت . وليتني لم أقبل .

كان معنا خلال الزيارة مندوب من وزارة الصناعة وسيّارة وسائق . كان المندوب يأتي كل صباح ليناقش معنا كل سكناتنا وحركاتنا لينسّقها مع السائق ، بحيث لا يعمل السائق أي ساعات إضافية . ثم اجتمع مع مدير مكتبي فهيد الشريف ، ليناقش «حدود» الضيافة . وكان يرجع بين الوقت والآخر إلى مجلّد ضخم في حوزته ، أعتقد أنه ينظّم ، بتفصيل رهيب ، قواعد الضيافة البريطانية . فهمنا من المندوب أن الحكومة البريطانية ستدفع نفقات الفندق والطعام المعتادة ، أمّا النفقات غير المعتادة فسوف نتحمّلها نحن . وبالاستفهام عن النفقات غير المعتادة تبيّن أنها تشمل المكالمات خارج لندن ، وغسيل البدل بالبخار ، وطلب الطعام في غير مواعيده . طلبت من مدير مكتبي أن يشكر المندوب ويفيده أننا سوف ندفع سائر نفقاتنا بنفسنا وأننا لا نريد أي ضيافة من أحد . أسقط في يد المندوب ولم يسعفه المجلّد الضخم ، وذهب إلى الوزارة وغاب ساعات طويلة وعاد يعتذر ، ويقول إنه تلقّى تعليمات جديدة بأن تدفع الوزارة سائر نفقاتنا المعتادة الاستثنائية . وهذا ما كان .

ومن ألطف ما يعلق بذاكرتي عن هذه الزيارة دعوة وزير

الصناعة لنا على العشاء في أحد فنادق لندن الكبرى . وبدأت «المأدبة» بكوب صغير من الحساء البارد . تلته قطعة صغيرة من سمك السالمون المشوي . وبينما كنّا في انتظار الطبق الرئيسي وصلت قطعة لا تكاد ترى من الآيسكريم ، ووقف الوزير يرحّب بي ووقفت أردّ على كلمته ، وجاءت أكواب القهوة ، وانتهت الوليمة . كنّا في منتهى الجوع وكانت الساعة في حدود الحادية عشرة ولم ينقذ الموقف إلا الصديق السفير عبدالرحمن الحليسي ، الذي دعانا في منزله إلى عشاء «حقيقي» .

على أنه بصرف النظر عن طرائف الضيافة ، فقد فشلت تلك الزيارة في تحقيق أهدافها . اجتمعت مع عدد من رؤساء الشركات البريطانية الكبرى ، وحاولت اقناعهم بالاستثمار في مشاريعنا الصناعية الكبرى في الجبيل وينبع . إلا أنني لم أجد أي تجاوب . كانت هناك رغبة شديدة في بناء المصانع ولكن لم أجد أي رغبة في المساهمة في رأس المال . بعد ذلك بسنوات تغيّر الموقف وتلقيّت عدداً من الطلبات من الشركات نفسها تطلب المساهمة في تلك المشاريع ، إلا أننا كنّا قد اتفقنا مع شركاء آخرين ، الأمر الذي اضطرنا إلى الاعتذار .

ثم التقيت بلندن لقاء رسمياً ثالثاً خلال توقّف ولي العهد الأمير فهد بها في مطلع سنة ١٩٧٧م ، وكان في طريقه إلى واشنطن لزيارة الرئيس كارتر ، وكنت عضواً في الوفد المرافق . لم تكن هناك هذه المرّة دعوة من المملكة ، فقد كانت الزيارة غير رسمية . إلا أن رئيس الوزراء جيمس كالاهان دعا الأمير فهد

وأعضاء الوفد الرسمي إلى تناول طعام الغداء في «شيكرز» مقرّ رئيس الوزراء الريفي خلال عطلة نهاية الأسبوع . هذا المكان يذكّرك بالقول المشهور «سماعك بالمعيدي خير من أن تراه» . المكان متواضع بكل المقاييس - والأثاث أشدّ تواضعاً ، أمّا الطعام فسيّد المتواضعين . لا أدري سرّ ولع رؤساء الوزارة البريطانية بهذا المكان وحرصهم على قضاء نهاية الأسبوع فيه ، حتى أثناء أحلك الأوقات . لقد قرأت مرّة ، نقلاً عن مصدر لا أدري مدى صدقيته ، أن هتلر كان تعمّد اتخاذ قراراته الرئيسية في الفترة التي سبقت الحرب العالمية الثانية في نهاية الأسبوع ؛ لأنه يضمن وجود رئيس الوزراء البريطاني في الريف بعيداً عن وزرائه ، ويضمن ، بالتالي ، أنه لن يكون هناك ردّ فعل بريطاني سريع .

خلال تلك الزيارة أتيح لي أن أرقب جيمس كالاهان عن كثب ، وأن أتحدّث إليه . وكنت قد تعرّفت عليه قبل ذلك أثناء زيارة قام بها إلى المملكة وهو وزير الخارجية . كان من الواضح أنه يتمتّع بشخصية أبوية وخلق دمث وتجربة واسعة . وكان من الواضح أيضاً أنه لا يمتلك القدر الكافي من الجاذبية الجماهيرية التي يجب أن تتوفر عند كل زعيم ناجح . كما أتيح لي أن أتحدّث طويلاً مع زميله دنيس هيلي . لقد وجدت ، وهذا بطبيعة الحال انطباع عاجل عابر ، أن ذهن هيلي أحدّ من ذهن زعيمه ، وأنه أكثر حضوراً منه . ولعلّه لو تولّى قيادة حزب العمّال بدلاً منه لأمكنه أن يبقي الحزب في الحكم فترة أطول .

كما تحدّثت طويلاً مع أنتوني بن الأرستقراطي الثريّ، الذي تخلّى عن لقبه وتنكّر لخلفيته ليصبح أكثر القادة العماليين تطرّفاً واشتراكية. لقد اكتشف قبل الغداء أن مقعده لم يوضع بقرب مقعد أحمد زكي يماني، فغضب وذهب إلى المسؤول عن ترتيب الطاولة ليصرّ على أن يجلس باعتباره وزيراً للطاقة قرب نظيره السعودي. وأعيد ترتيب الطاولة إرضاء له. بعد ذلك سألني عدة أسئلة عن الوسام الذي كنت أحمله، وسام الملك عبدالعزيز، فأجبته ثم أضفت:

- كنت أعتقد أن هذه المسائل لم تعد تهمّك!

كان يحمل كاميرا صغيرة وكان بين الوقت والآخر يصوّر كالاهان ويختار اللقطات المعبّرة دون علم ضحية التصوير. ولا أدري هل كانت هذه الصور ناتجة عن هواية حقيقية أو كان مبعثها الرغبة الخفية أو المبطنة في اصطياد رئيس الوزراء، ومنافسه الرئيسي في الحزب، في موقف طريف.

كانت العلاقات السعودية/ البريطانية منذ إنشاء الدولة السعودية جيّدة في الغالب الأعمّ من الحالات. لم تكن بريطانيا مهتمّة كثيراً من الناحية الاستراتيجية بما يدور في قلب الجزيرة العربية، بعيداً عن مصالحها الحيوية وعن خطوط مواصلاتها، ولهذا لم يكن يهمّها كثيراً في نهاية الأمر من يحكم داخل الجزيرة. ومع بزوغ نجم الملك عبدالعزيز بن سعود وانتصاره التدريجي على سائر منافسيه، بدءاً بآل رشيد في حائل وانتهاء بالشريف حسين في الحجاز، تأقلمت بريطانيا

بسرعة مع هذا الوضع . كانت المشكلة الوحيدة هي رسم حد فاصل لا يتجاوزه طموح الملك عبدالعزيز . وقد تم بالفعل رسم هذا الحد على مشارف المحميات البريطانية المطلّة على الخليج . عندما استقرّت الأوضاع على هذا النحو لم تعد هناك أزمات تذكر في العلاقات بين الطرفين .

إلا أن العلاقات بين الدولتين توترت توتراً شديداً خلال أزمة البريمي في بداية الخمسينات حتى وصلت حد الصدام المسلّح بين وحدات سعودية ووحدات بريطانية وعمانية في الواحة . كان الملك سعود في تلك الفترة منحازاً إلى صف الرئيس عبدالناصر ، وأثناء حرب السويس قطعت المملكة علاقاتها الدبلوماسية ببريطانيا ، وظلّت العلاقات مقطوعة عدّة سنوات . والذي يقرأ مذكّرات أنطوني إيدن يجدها تطفح بالمرارة من موقف المملكة في تلك الفترة . إلا أنه مع بداية الستيّنات تغيّرت الخارطة السياسية في العالم العربي ، فانفصلت المملكة عن فلك عبدالناصر ، ووضعت أزمة البريمي على الرفّ ، وعادت العلاقات الطبيعية بين بريطانيا والمملكة .

ظلت هذه العلاقات ممتازة طيلة عهد الملك فيصل . وفي خلال أزمة اليمن كانت بريطانيا المصدر الرئيسي للأسلحة والخبرة العسكرية للمملكة . وشيئاً فشيئاً زادت مبيعات بريطانيا العسكرية إلى المملكة ، عبر صفقات تسليح متلاحقة بلغت ذروتها مع صفقة الطائرات «اللايتنج» ، وبدأت الشركات البريطانية تكتشف الإمكانيّات الهائلة في السوق السعودي .

حتى إذا جاء عهد الملك خالد كانت بريطانيا تعتبر المملكة شريكاً تجارياً بالغ الأهمية . وكانت العلاقات السياسية بدورها ممتازة . وكانت هناك اتصالات ومشاورات دائمة بين المسؤولين البريطانيين والسعوديين .

جاءت الملكة اليزابيث إلى المملكة بدعوة من الملك خالد . وقد كتبت بعض الصحف البريطانية أشياء كثيرة سخيفة عن هذه الزيارة . قيل ، ضمن ما قيل ، إن الملك خالد لم يستطع أن يستقبل الملكة إلا بعد أن أُعتبرت «رجلاً فخرياً» . وقيل إنها لم تحضر مأدبة العشاء الرسمية . في أثناء الزيارة دعت الملكة مضيفها إلى العشاء في يختها الراسي في ميناء الدمام . وجاء رئيس المراسم السعودي يعتذر للوزراء السعوديين بحرارة ويقول إن طاولة الطعام في اليخت لا تتّسع إلا لعدد محدود من المقاعد ، ولهذا فلن يكون با لإمكان دعوة أكثر من ثلاثة وزراء . وللمرة الثانية وجدت نفسي «منفياً» من مائدة الملكة . لم يكن هذا ، بطبيعة الحال ، أمراً مؤلماً ، ولكن تكرار التجربة وفي ظروف مشابهة ، أدى إلى التساؤل في نفسي عن سرّ هذا الإصرار البريطاني على جعل مائدة الملكة أصغر من موائد جميع رؤساء الدول في العالم . جاء الوزراء الثلاثة سعيدو الحظ بعد نهاية الوجبة ليعلنوا أنهم ذاهبون إلى الفندق «لتناول طعام العشاء»!

ثم جاءت أزمة «مصرع أميرة» الفيلم الذي بثّه التليفزيون البريطاني «ب .ب .سي» ، وثار الملك خالد وأصرّ على معاقبة البريطانيين ، وجمّدت العلاقات بين الدولتين . ما تبثّه هيئة

الإذاعة البريطانية «ب .ب .سي» كان دائماً مصدر إزعاج في العلاقات بين بريطانيا وحكومات العالم الثالث . وكان «السيناريو» يتكرّر برتابة مملّة . تذيع هيئة الإذاعة البريطانية أخباراً تعتقد أنّها صحيحة ، وتعليقات تعتبرها موضوعية ، وتحتج الدولة الأخرى معتبرة موقف الإذاعة البريطانية موقفاً عدوانياً متحيّزاً . وتردّ بريطانيا أن الإذاعة البريطانية مؤسسة مستقلة لا سلطان للحكومة البريطانية عليها ، وأن هذه الإذاعة كثيراً ما تنتقد الحكومة البريطانية نفسها . وترفض الدول الأخرى هذا التفسير . ولعلّ إيران خير مثال على ذلك . الذي يقرأ مذكرات آخر سفير للشاه في بلاد السان جيمس ؛ يدرك كيف كان السفير يقضي نسبة لا تكاد تصدّق من وقته في مناقشات عقيمة لا أول لها ولا آخر حول ما تذيعه هيئة الإذاعة البريطانية . ولقد شهدت مقابلة تليفزيونية مع الشاه بعد خلعه وقبل وفاته بشهور ، وكان خلالها شديد الألم واضح المرارة من موقف هيئة الإذاعة البريطانية من الثورة التي انتهت بإقصائه عن عرش الطاووس .

ظلت العلاقات السعودية البريطانية مجمّدة حوالي سنة . وتدريجياً عادت المياه إلى مجاريها . ذهب السفير السعودي إلى لندن وعاد السفير البريطاني إلى جدة . وتقرّر أن يردّ الملك خالد زيارة الملكة . وبالفعل تمّت الزيارة . لم ارافقه في تلك الرحلة ، إلا أن الذين كانوا معه أخبروني أنه كان سعيداً غاية السعادة خلالها . كان قد زار لندن عدّة مرّات قبل الحرب العالمية الثانية

كما زارها أثناء الحرب وشهد القصف الجوي المريع . أعدّ للملك برنامج حافل وقضى وقتاً طويلاً يشاهد خيول الملكة . وعندما عاد ظلّ فترة طويلة يتحدّث عن هذه الخيول . وكان من أغرب ما اكتشفه خلال الزيارة أنه عند وجود فرس ممتازة لا تستطيع أن تلد ، يمكن نقل الجنين من رحمها إلى رحم فرس أخرى في مرحلة مبكّرة من الحمل ، فترث المهرة خصال أمّها الحقيقية رغم وجودها في رحم أم أخرى . حاول الملك تطبيق التجربة في الرياض ووصل طبيب بيطري بريطاني لهذا الغرض . إلا أن التجربة لم تنجح .

ثم زارت مارجريت تاتشر الرياض . لم اشارك في المباحثات الرسمية ولكني أشك كثيراً أنّها تجاوزت تبادل وجهات النظر حول القضايا العالمية ، وقضايا الشرق الأوسط ، والعلاقات الاقتصادية الثنائية . أقامت زوجة الأمير فهد حفل عشاء منفصل لتاتشر ، دعيت إليه مجموعة من السيّدات السعوديات . أخبرتني زوجتي أن انطباع الحاضرات عن تاتشر كان إيجابياً للغاية . وقد بدأت الحديث بقولها :

إنني مستعدّة لأن أبحث معكن كل شيء تردن بحثه . وأن أجيب عن أي سؤال .

سألتها إحدى الحاضرات عن سبب تسميتها «السيدة الحديدية» . كان أكثر الحاضرات يتوقعّن أن يكون مصدر التسمية أطلقه أحد منافسيها من الساسة البريطانيين . إلا أنّها ردّت بأن الاسم ورد لأول مرّة في وسائل الإعلام السوفيتية

التي استخدمته انتقاما من مواقفها الحازمة إزاء الاتحاد السوفيتي . وفي نهاية العشاء نصحت رئيسة الوزراء السيّدات الحاضرات بأن يكون للمرأة السعودية دور أكثر نشاطاً في الشؤون العامة!

وفي فبراير سنة ١٩٨٤م رافقت ولي العهد الأمير عبدالله في زيارته الرسمية لبريطانيا وكنت وقتها وزيراً للصحة . كان البريطانيون حريصين على رفع مبيعاتهم العسكرية إلى المملكة ، ولذلك خصصوا يوماً كاملاً من أيّام الزيارة الثلاثة للمناورات العسكرية ، وحشدوا آخر المعدّات البريطانية المتطوّرة ، وبالذات الدبابة (الشيفتان Chieftan) . قضينا بضع ساعات في جو مثلج نرقب المناورات ونرتعش من البرد . وعندما جاء الضابط المرافق يسأل الأمير عبدالله إذا كان يريد دخول إحدى الدبّابات وتجربتها بنفسه نظر الأمير إلى المطر المنهمر بغزارة وإلى الوحول التي تمتد بين المنصّة والدبّابات واعتذر بلباقة .

عندما سئل الأمير عن انطباعه عن المعدّات التي شاهدها ، أجاب أنه معجب بها و بأدائها ، ولكن ظروف المملكة المالية بعد انخفاض مبيعات البترول تجعل من الصعب التفكير في صفقات جديدة . وأضاف أنه حال توفّر الأموال الكافية فسوف يسعده أن يبدأ البحث حول إمكانية الشراء . وعندما حاول المسؤولون البريطانيون الحصول على التزام أكثر تحديداً ، أكّد مرة أخرى أنه لا يجد أي فائدة من الدخول في

تفاصيل صفقة لا يوجد في الأساس أي اعتمادات مالية لها .

كانت تاتشر مصابة بزكام حاد أثناء المباحثات ، جعلها في حالة من الهدوء النسبي تختلف تماماً عما توقّعته من السيدة التي قال لي هيلموث شمث عنها مرّة «إنها تعتقد أنها الرجل الوحيد في العالم» ، كانت المباحثات تدور حول قضية الشرق الأوسط ، ولم يكن في الموقف البريطاني جديد . كان ولي العهد قد قدم لتوّه من دمشق حيث أجرى مباحثات طويلة مع الرئيس حافظ الأسد ، وكانت رئيسة الوزراء حريصة على متابعة آخر التطوّرات على الساحة اللبنانية . فيما يخص العلاقات الثنائية لم تكن هناك أي مشاكل ، وكان البحث مع الوزراء البريطانيين منصباً على نشاط الشركات البريطانية في المملكة . وفي أثناء الحديث شكا الأمير عبدالله لرئيسة الوزراء من الشركة البريطانية المسؤولة عن إدارة إحدى مستشفيات الحرس الوطني في المملكة ، وقال إن أداء الشركة غير مرضٍ على الإطلاق . بعد الاجتماع رأيت السيدة الحديدية في مزاج حديدي . كانت بادية الغضب تريد أن تعرف مدير هذه الشركة . استدعت أكثر من مسؤول ووبّخته وكانت تكرّر بانفعال :

- إنني أريد معرفة هذا الشخص . إني أريد أن «أضعه على البساط»[١٢] .

خلال الزيارة كنت الشخص الثاني في الترتيب

(١٢) تعبير انجليزي يعني التأديب الشديد!

البروتوكولي للوفد ، اي بعد ولي العهد مباشرة ، الأمر الذي لم يعد معه مجال لاستبعادي من مائدة الملكة . ولو أن المشكلة ظلّت قائمة . لم يتمكن عدد من أعضاء الوفد من حضور غداء الملكة ، وكان من بين هؤلاء منصور الخريجي نائب رئيس المراسم الملكية والرجل المسؤول عن ترتيبات الزيارة كافة . وكان ، بطبيعة الحال مستاء من هذا التصرّف . يبدو أن قدر مائدة الملكة أن تسبّب من الأزمات في علاقات بريطانيا بالعالم الخارجي بقدر ما تسبّب من الانفراج!

ذهبنا إلى قصر باكنجهام قبل موعد الغداء بنصف ساعة . كانت الملكة في انتظارنا ترتدي ثياباً عادية مع حد أدنى من المكياج . بدت لي عن قرب أقصر مما تبدو في صورها . كما أن وجهها بدا مرهقاً بعض الشيء . علمت أنني سأكون على يسار الملكة خلال الطعام ، وقضيت بعض الوقت أفكّر في الحوار الذي يمكن تبادله معها . كنت قد سمعت وقرأت أنها متحفظة قليلة الكلام ، فلم أشأ أن اضطرّها إلى الحديث . من ناحية أخرى لم أكن أودّ أن تمر هذه الفرصة ، التي لم تسنح إلا أخيراً ، دون أن أحاول أن أتعرّف إلى نفسية الإنسانة التي تختفي وراء قرون طويلة من التقاليد الملكية البريطانية . قرّرت أن أترك الأمور تأخذ مجراها الطبيعي . ولقد تبيّن لي فيما بعد أن مخاوفي لم يكن لها ما يبرّرها .

بدأت حديثي معها بالتجربة البريطانية في إنشاء دور خاصّة (Hospies) يقضي فيها مرضى السرطان أيامهم الأخيرة

في جو إنساني دافىء مريح . وقلت للملكة إنني أفكّر في عمل دور مماثلة في المملكة . وتبيّن أنها تعرف الكثير عن هذه الدور . وقادنا هذا البحث الطبّي إلى مواضيع طبيّة أخرى . قالت الملكة :

- لقد قرأت في إحدى صحفنا مؤخراً أن طفلة بريطانية تحتاج إلى عملية زرع كبد في الولايات المتحدة ، لأن مثل هذه العمليات لا تجرى في بريطانيا حتى الآن . طلبت الصحيفة من قرّائها التبرّع لصالح الطفلة ، وانهالت التبرّعات حتى وصلت أكثر من خمسة وثلاثين ألف جنيه استرليني . أي أضعاف المبلغ المطلوب . كم يسعد الإنسان أن يجد مثل هذا التجاوب المؤثّر .

وقادنا الحديث إلى أطباء العالم الثالث الذين يعملون في الغرب . قالت الملكة :

- إنني أشعر أن على هؤلاء الأطباء أن يعودوا إلى بلادهم . إن حاجة بلادهم إليهم أشدّ بكثير من حاجة الغرب . صحيح أنّهم قد يحصلون على رواتب أكبر ومزايا أفضل في الغرب ، إلا أن واجبهم الوطني يحتّم عليهم ، في رأيي ، أن يعودوا ليخدموا أوطانهم . إنني عندما ألتقي بطلبة أجانب في الجامعات والمعاهد البريطانية أسألهم دائماً إذا كانوا ينوون البقاء في بريطانيا أو العودة إلى بلادهم . ويدهشني أن أجد أن عدداً كبيراً منهم ينوي البقاء هنا . ربّما كان البعض يقولون ذلك لي على سبيل المجاملة . إننا نرحب بهم بطبيعة الحال ، ولكن بلادهم أولى بهم .

تعاطفت كثيراً مع رأي الملكة . ولم أضف أنه لو عاد الأطباء الأجانب العاملون في بريطانيا إلى بلدانهم لبقي معظم رعايا الملكة بدون رعاية صحيّة . لا بدّ أن الملكة ملمّة بهذه الحقيقة فلا داعي إذن لذكرها .

وانتقل الحديث إلى العائلة والقيم العائلية . وكان رأي الملكة لا يختلف عن رأي أكثر المحافظين محافظة في المملكة .

- إن المجتمع المعاصر في بحثه الدائب السريع عن التطور فقد كثيراً من القيم الأصيلة النافعة . وأهم القيم التي فقدها هي التماسك العائلي . إن العائلة بالنسبة لي تعني الشيء الكثير . إنها عنصر من أهم عناصر حياتي ولا أستطيع أن أتصوّر لحياتي معنى دون عائلتي .

تحدّثت عن جدّتها الملكة فيكتوريا :

- كان بوسع الملكة فيكتوريا أن تزور أقاربها المنتشرين في أوربا بسهولة ، وعلى فترات متقاربة . أمّا الآن فقد أصبحت هذه الزيارات العائلية متعذّرة سياسياً . هناك مشاكل سياسية في كل مكان .

سألتها عن عدد أفراد عائلتها :

- إن أفراد عائلتي القريبين يبلغون ثلاثة وثلاثين . أمّا إذا أضفنا إلى هؤلاء أحفاد الملكة فيكتوريا كافة في كل مكان وأولادهم ، فسوف يبلغ العدد المئات . إنني لا أستطيع إحصاءهم بدقّة .

كنت قد قرأت في صحيفة بريطانية أن المواليد في العائلة

المالكة البريطانية يبدأون بمولود ذكر ثم وليدة أنثى ثم بمولود ذكر . سألتها إذا كان هذا صحيحاً . أطرقت تفكر برهة :

- إن هذا لم يخطر ببالي من قبل . ولكن يبدو أن القاعدة صحيحة على وجه العموم[١٣] .

من الحديث عن العائلة تطرّق البحث إلى الملكات . وقلت لها ما يعرفه كل من قرأ التاريخ البريطاني وهو أن عهود الملكات في هذا التاريخ كانت من أكثر عهوده ازدهاراً وأمناً . قلت لها ، بعبارة أخرى ، إن ملكات بريطانيا أنجح من ملوكها .

ابتسمت بخجل وقالت :

- قد يكون هذا صحيحاً . ولكنني أعتقد أن السبب الرئيسي هو أن عهود الملكات لم تشهد قلاقل وأزمات خطيرة شبيهة بما شهدته عهود الملوك . أي أن الملكات كنّ أسعد حظاً

إلا أنني قلت لها إنني أعتقد أن هناك سبباً آخر لنجاح الملكات :

- إن المواطنين يتعاطفون مع ملكة أنثى أكثر من تعاطفهم مع ملك رجل . أنهم يتوقّعون أن يحميهم الملك ولكنهم يتوقّعون أن يحموا هم الملكة . هذا في اعتقادي يجعل عواطفهم نحو الملكة أكثر حرارة .

قلت لها رأيي الخاص .

---

(١٣) لم تصدق هذه القاعدة في حالة ولي العهد البريطاني الأمير تشارلز فقد رزق بمولودين ذكرين على التوالي

ثم انتقلنا إلى المتحف .

أخبرتها أنني أصدرت مجموعة من الشعر العربي القديم مترجمة إلى الإنجليزية[١٤] . تبيّن أن معلومات صاحبة الجلالة الشعرية لا يستهان بها :

إنني أقرأ الآن كتاباً ظهر مؤخراً عن حياة اللورد بيرون . هذا الكتاب يلقي أضواء جديدة على حياة بيرون غفل عنها كتاب سيرته السابقون . لقد صوّره هؤلاء صورة مفرطة في السوء . صورة الشيطان المجرّد من كل القيم والأخلاق . أمّا هذا الكتاب فيبرزه في صورة مختلفة تماماً . في صورة أقرب إلى الحقيقة . إن الناس ، للأسف ، يحكمون على غيرهم بمقاييس العصر الذي يعيشون فيه ، ناسين أن لكل عصر قيمه الخاصة ومعاييره الخاصة . ولهذا كثيراً ما يكون حكمهم قاسياً . وهذا ما حدث مع بيرون .

مع هذا الحديث الأدبي كان الغداء يقترب من نهايته . لا بد ، للحقيقة والتاريخ ، أن أقول إن الوجبة كانت شهية ومشبعة . كنت أفكر في الاحتفاظ بقائمة الطعام كذكرى صغيرة للزيارة . إلا أنني قبل تنفيذ الفكرة ، فوجئت برئيس الخدم يجمع القوائم من الطاولة . يبدو أن تقاليد قصر باكنجهام لا تسمح للضيوف بالاحتفاظ بقوائم الطعام . قد يكون

---

(١٤) أرسلت إليها فيما بعد نسخة من المجموعة وجاءني شكر باسمها ، من أمين الديوان .

السبب . والله أعلم . عدم رغبة القصر في مضاعفة آلام المبعدين عن مائدة الملكة .

خلال الحديث مع الملكة لم تستخدم أبداً صيغة الجمع الملكية . لم تقل مرّة واحدة عبارة جدّتها الملكة فيكتوريا الشهيرة «إننا لا نجد هذا مسلياً!!» ، لم تلجأ إلى الصمت العميق أو النظرات الباردة . كانت تتحدّث بعفوية وبانطلاق وبكثير من الذكاء .

ربّما كانت مائدة الملكة ، إذن ، تستحق الانتظار الذي استغرق قرابة تسع سنوات!

بين المهندس والنحلة!

في صيف سنة ١٩٨١م ، زارنا الرئيس الفرنسي الجديد ميتران في الطائف ، وكنت الوزير المرافق . وعلّق الأمير ماجد بن عبدالعزيز ، بمرحه المعهود ، على هذا فقال إنه لا بد لمرافقة ميتران من وزير طوله «متران»! وقد جاءت الزيارة بمبادرة من ميتران . لقد عرف عن ميتران تأييده الواضح للصهيونية . وقد أدلى خلال الحملة الانتخابية بتصريحات موالية لإسرائيل . وأعلن أنه ينوي زيارتها بعد انتخابه . هذا كله ، بالإضافة إلى كونه مرشّح الحزب الاشتراكي ، أدّى إلى ظهور موجة من القلق في المملكة . أدرك ميتران هذا ، وأدرك أن العلاقات الفرنسية السعودية في عهد أسلافه كانت ودّية ، فأراد أن يتجنّب أي فتور في العلاقات . وقرّر أن يزور المملكة . وكانت المملكة من أوائل الدول الأجنبية التي زارها ، إن لم تكن أولها .

كان ميتران حريصاً على توضيح نقطتين أساسيتين : برنامجه الاقتصادي في فرنسا ، وسياسته نحو الشرق الأوسط . فيما يتعلّق بالاقتصاد ، قال :

– نحن لا ننوي أن نؤمّ كل شيء كما يشاع عنّا . سنؤمّم

البنوك الكبرى وبعض الشركات الصناعية الضخمة والهدف هنا ليس اقتصادياً فحسب بل هناك اعتبارات سياسية . نحن لا نريد لاقتصاد فرنسا أن يدار من الخارج ، ومن الولايات المتحدة بالذات . نريد أن نتحكّم في اقتصادنا . نريد أن تكون لنا السيادة التّامة على مصيرنا . ثم إنني أودّ أن أجري تغييرات ديناميكية جذرية في الصناعة الفرنسية . أريد إيجاد روح جديدة وأولويات جديدة . أودّ أن أقضي على الأنماط القديمة في الإنتاج . هذا هو هدفي الأساسي . إنني لا أعتبر التأميم هدفاً في حدّ ذاته . أرجو أن يكون هذا واضحاً لديكم .

وفيما يتعلّق بقضية الشرق الأوسط ، قال :

- سوف أكون واضحاً معكم كل الوضوح . سأقول لكم في هذه القاعة ما سأقوله في إسرائيل . لن أتحدّث أمامكم بلغة ووراءكم بلغة أخرى . إنني معروف بصلاتي القوية بإسرائيل . وهي صلات قديمة نمت أساساً من خلال عملي في الحزب الاشتراكي . وقد وعدت بزيارة إسرائيل وسأزورها . ولكن هذا لا يعني أني أؤيد كل ما تفعله إسرائيل . إن فرنسا لا زالت ملتزمة بالموقف الموحّد الذي اتخذته دول السوق الأوروبية المشتركة من الشرق الأوسط . موقفنا لم يتغيّر . لا نزال ننادي بانسحاب إسرائيل وبإشراك الفلسطينيين في تقرير مصيرهم . إن تجاهل الفلسطينيين حماقة كبرى . سأقول هذا الكلام للإسرائيليين في عقر دارهم .

في المؤتمر الصحفي المشترك الذي عقده مع الأمير فهد في

نهاية هذه الزيارة ؛ أكد ميتران موقفه . بل إنه في إحدى إجاباته أشار إلى أنه يحترم منظمة التحرير الفلسطينية «كحركة تحرير وطني ذات هدف سام» .

خلال الانتقال من المطار إلى قصر الضيافة ، كنت في السيّارة مع كلود شيسون وزير الدولة للشؤون الخارجية . وكان رجلاً صريحاً إلى درجة يندر وجودها بين الدبلوماسيين .

- إنني عيّنت في وظيفتني هذه منذ شهور قليلة . وأنا أعمل الآن أكثر من أية فترة مضت من حياتي . ولكنني أعشق وظيفتي . ولا أخجل من الاعتراف بهذه الحقيقة . إنني أعرف أن كل مسؤول يحب أن يتظاهر بالضيق من مسؤولياته . أمّا أنا فأقول لك إنني أحبّ كل لحظة أقضيها في عملي .

ثم أوضح لي سبب التصريحات العديدة المتناقضة التي تصدر من الحكومة الفرنسية :

- لا تنس أننا كنّا في المعارضة سنين طوالاً ولم نتعوّد على الحكم . ليس في مجلس الوزراء الحالي سوى وزير واحد سبق أن تولّى منصباً وزارياً . أمّا البقية فقد قضوا معظم حياتهم السياسية في المعارضة . وعندما دخلوا الحكم لم يتأقلموا بسرعة مع الوضع الجديد . استمرّوا يتصرّفون كما كانوا يتصرّفون في السابق . كل وزير يصرّح كما يحلو له . بل وينتقد سياسة الحكومة كما يحلو له . فوجئت أن وزير الزراعة يتحدّث عن السياسة الخارجية . ووزير العدل . ثم تنبّه الرئيس إلى ضرورة الانضباط . وبدأت الأمور تنضبط بالفعل .

وتطرّق الحديث إلى موضوع الرئيس ريجان وجهله الشهير بالسياسة الدولية . وقال لي شيسون قصّة جرت خلال زيارة السادات الأخيرة لواشنطن . كان السادات يتحدّث مع ريجان عن الأوضاع في الشرق الأوسط . واستعرض دول المنطقة واحدة واحدة . وذكر صدام حسين . وبعد قليل أعاد ذكره مرّة أخرى . وهنا قاطعه الرئيس ريجان والتفت إلى مساعديه . . .

– حسين؟ من هو حسين هذا؟ هل فيكم من يعرف حسين هذا؟

وردّ وزير الخارجية الأمريكي أن «حسين هذا» هو رئيس جمهورية العراق!

اتيحت لي الفرصة أن أتبادل الحديث مع ميتران عدّة مرّات . سألته مرّة لماذا اختار لكتابه ، وهو في الاقتصاد والسياسة ، اسم «النحلة والمهندس» أجاب .

– لقد أردت أن أشير إلى قدرة الإنسان على أن يصوغ مصيره بنفسه . إن النحلة تبني بيوتاً بديعة ولكنها تبنيها بدافع من الغريزة وحدها ، ولهذا تجيء بيوت النحل متشابهة بدون خيال . أمّا المهندس فيستطيع أن يبني بيوتاً مختلفة ويبدع في البناء . أريد أن أقول إن الإنسان مهندس وليس نحلة .

لمحت في الحديث ظلالاً واضحة للدايلكتيكية الماركسية . فوددت أن أستدرجه إلى الكلام بصراحة أكثر .

– ولكن ألا ترى يا فخامة الرئيس أن كثيراً من المجتمعات الاشتراكية أصبحت شبيهة ببيوت النحل ، إنها تبنى على

الطراز نفسه وتدار بالعقلية نفسها؟

ونجح الاستدراج . وانطلق يدافع عن ماركس بحرارة :

- هذه ليست مجتمعات ماركسية . إنها مجتمعات سلطوية تدّعى الماركسية . إن المجتمع الماركسي لم يوجد بعد . كل نظريات ماركس شوّهت وحُرّفت . غيّرها لينين وتروتسكي وستالين وماوتسي تونج وكثيرون غيرهم . إن الماركسية الحقة لم تنل -بعد- أي نصيب من التطبيق .

كان السادات قد اتّهم ميتران بأنه وقف إلى جانب محمد حسنين هيكل ، وأيّده في انتقاداته لسياسة السادات . وسألت ميتران عن حقيقة ما حدث ، فأجاب . . .

- إنني مندهش من تصريحات السادات . ولكنني لن أردّ عليه . إنني أعرف هيكل منذ سنوات طويلة ، وأعتبره صديقاً شخصياً منذ أيّام عبدالناصر . وقد اجتمعت به عدّة مرّات . وعندما كان في باريس مؤخّراً قابلته . ولم نتطرّق إلى السادات على الإطلاق . لم يذكره هيكل ولم أذكره أنا . لهذا فإنني عاجز عن فهم اتهّام السادات .

- فخامة الرئيس . إنني شخصياً أعتقد أن السادات يعاني من «البارانويا»!

- يبدو ذلك . في هذه الحالة على الأقّل .

خلال الزيارة تقرّر أن يقوم ميتران بزيارة قصيرة إلى الرياض . كان مرهقاً وقضى معظم الرحلة وهو نائم في الطائرة . وعندما وصلنا إلى المطار كان هناك خلاف استغرق عدّة دقائق

بين أمناء المراسم عن طائرة الهيلوكبتر المخصصة للرئيس. ثم استقرّ الرأي على أن نتجه إلى واحدة منها. دخلنا الطائرة وربطنا أحزمة المقاعد. وبعد حوالي عشر دقائق اعتذر الطيّار بأن الطائرة لا تستطيع الإقلاع لخلل فنّي. واضطررنا إلى تغييرها. لم يبد على وجه الرئيس أي أثر من آثار الغضب أو الاستياء. في الدرعية دبّ فيه قدر من الحيوية. فأخذ السيف وشارك في «العرضة» - رقصة الحرب - النجدية.

انطباعي عن ميتران أنه رجل ذكي، قوي الشخصية، ولكنه إنسان متجهمّ لا يتصف بالمرونة الفكرية. يبدو أن السنين الطويلة في المعارضة قد علّمته أن يكون واقفاً موقف الدفاع والتحفزّ طيلة الوقت. كان يبدو متعباً طيلة الزيارة. ولم يبد عليه أنه يتمتّع بالمراسم البروتوكولية التي يعشقها معظم الزعماء. كما أن تصرّفاته مع معاونيه كانت تتّسم بغير قليل من العجرفة الموروثة عن سلفه. يبدو أن هناك «شيئاً» ديجولياً يطبع بطابعه كل رؤساء فرنسا. بل ربّما كان تاريخ هذا الشيء يعود إلى ما قبل ديجول. إلى الرجل الذي قال بصراحة يحسد عليها «أنا الدولة!» لم ألمس في ميتران أي جاذبية جماهيرية ولا ما يدل على وجود أي أثر لروح الدعابة. كان واجماً معظم الوقت، وأكاد أقول متجهم الأسارير. نادراً ما رأيته يبتسم خلال الزيارة، وحتى في المرّات القليلة التي ابتسم فيها جاءت ابتسامة جامدة بلا روح، كالأزهار الصناعية. هل هذه طبيعته؟ لا أدري. ربّما كان السبب القلق الطبيعي الذي يحسّه رجل

اشتراكي ماركسي وهو يزور بلدا متديّنا محافظا .

عندما ودّعناه في المطار كنت لا أكاد أصدّق ما حدث :

لقد مرّت الزيارة دون أية مطالب!!

JadidPDF.com

مع قاهر الإمبراطورية البريطانية!

مهمّة الوزير المرافق ، في العادة ، جزء ثقيل من واجبات الوزير الرسمية . وكثيراً ما يحاول الوزراء التملّص منها ، ما لم يكن رئيس الدولة الذي يقوم بالزيارة شخصية عالمية مرموقة ، وعندها تنعكس الآية فيحرص كل وزير على أن يكون هو الوزير المرافق . بالنسبة لي كان الاستثناء الوحيد عيدي أمين . لقد طلبت من صديقي أحمد عبدالوهاب ، رئيس المراسم الملكية ، بإلحاح أن أكون الوزير المرافق لعيدي أمين في أي زيارة قادمة يقوم بها للمملكة . ووعد أحمد بأنه سيحاول تحقيق هذه الرغبة . وهذا ما كان(١٥) .

لم تكن شخصية عيدي أمين عادية ولا مألوفة . كانت «برقيّاته» الشهيرة حديث العالم . كانت «أحلامه» بدورها موضع التندّر . لم تهاجم وسائل الإعلام الغربية ، والبريطانية بوجه خاص ، منذ أيّام جمال عبدالناصر أي زعيم في العالم

(١٥) يتم اختيار الوزير المرافق بقرار من الملك أو ولي العهد بناء ، في الغالب ، على ترشيح رئيس المراسم الملكية .

الثالث كما هاجمت عيدي أمين الأساطير المقترنة بحياته وتصرّفاته تمتزج بالحقيقة على نحو يستحيل معه أن يعرف المرء متى تنتهي الأسطورة وتبدأ الحقيقة . قيل إنه أكل أجزاء من كبد أحد وزرائه بعد قتله . قيل إن حكمه شهد من الرعب والمجازر الوحشية ما لم يشهده أي حكم آخر . قيل الكثير عن أجهزة المخابرات والمغامرين الدوليين المتخصّصين في التعذيب ، والجثث التي تطفو على النهر . قيل عن فضائحه النسائية ما لا يكاد يصّدق . قيل إنه أمّي لا يعرف القراءة ولا الكتابة . هناك -بالتأكيد- شيء من الحقيقة في هذا كلّه . وهناك -بالتأكيد- عنصر من الخيال في هذا كلّه . لا يمكن لإنسان واحد أن يختزن هذا الشرّ كلّه دون قطرة واحدة من الخير .

إلا أنه تبقى حقيقة ثابتة لا مجال للشكّ فيها . وهو أن الرجل غريب الأطوار إلى درجة تقترب من الحمق . وقد كانت غرابة أطواره مصدر إزعاج لأصدقائه قبل أعدائه . بل لعلّ عيدي أمين خير تجسيد للمثل العربي «عدو عاقل خير من صديق جاهل» .

خلال حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣م أصرّ إصراراً غريباً على الحضور إلى المملكة ثم السفر إلى سوريا . ورغم التلميحات الواضحة أن الوقت ليس مناسباً لأية زيارات إلا أنه ألّح . ولم يكن هناك بدّ من الاستجابة . جاء إلى المملكة وقابل الملك فيصل . يقول الأمير فهد الذي شهد الاجتماع إنه قدّم إلى الملك الخطّة «الجهنّمية» التالية :

- يا جلالة الملك . لقد تدربت في إسرائيل كجندي مظلات وأعرفها وأعرف مطاراتها جيدا . ولديّ خطة عسكرية لا يمكن أن تفشل . وقد جئت أعرضها عليكم وعلى الإخوان العرب ، وأنا على استعداد تام للمشاركة في تنفيذها . الخطة هي أن نجمع مئات من الطيّارين العرب في طائرات لنقل الجنود . ثم تذهب هذه الطائرات بهدوء وتحطّ في المطارات العسكرية الإسرائيلية . عندها يخرج الطيّارون العرب بسرعة ويتوجّهون إلى الطائرات العسكرية الإسرائيلية الجاثمة في المطار ، ويستقلّونها ويقلعون بها بسرعة ، ويبدأون في ضرب إسرائيل قبل أن تفيق من الصدمة . ما رأيك يا جلالة الملك؟

وقع الملك فيصل في حرج شديد . فهو -بالتأكيد- لا يستطيع الموافقة على «خطّة» كهذه . كما أنه بحكم كونه المضيف لا يستطيع جرح شعور ضيفه المتحمّس . في النهاية كان ردّه غاية في الدبلوماسية :

- يا فخامة الرئيس . نحن لا نخرج عما يراه إخوتنا العرب . وما دمت ستزور دول المواجهة وتعرض عليها الخطّة فالرأي الأول والأخير لهذه الدول . وإذا ما وافقت على الخطّة فلن نتوانى عن المساهمة في تنفيذها .

وقد استمعتُ إلى الرئيس حافظ الأسد يروي بنفسه الضيق الشديد الذي سبّبته له زيارة عيدي أمين :

- كنت في غرفة العمليّات . وكانت المعركة محتدمة وضارية وعلى كل الجبهات . وفجأة وصل عيدي أمين إلى

دمشق وأصرَ على مقابلتي . قال إنه لديه نصائح مهمة لا بدَ أن أستمع إليها . حاولت أن أتهرَب من المقابلة ولكن دون جدوى . أخيراً اضطررت إلى مقابلته . وضاع وقت ثمين في ظروف قتالية حاسمة .

وروى الرئيس حافظ الأسد كيف عرض عليه عيدي أمين مرَة أن يزوده بحرس خاص من أوغندا جميعهم من الأقزام :

قال لي : هؤلاء الأقزام نافعون للغاية . وحجمهم يساعدهم على حمايتك حماية ممتازة . بإمكانهم أن يختفوا تحت الكرسي الذي تجلس عليه . أو تحت الطاولة . ثم يظهرون فجأة من تحت أقدامك .

ضحك الرئيس الأسد عالياً وهو يردّد :

- تصوَر أقزاماً يخرجون فجأة من تحت أقدامي!!

لقد شكرت عيدي أمين بحرارة . وأخبرته أنني أقدّر مشاعره . ولكنني لا أحتاج إلى هؤلاء الأقزام!

وقصص عيدي أمين لا تنتهي .

كان عيدي أمين في شتاء سنة ١٩٨١م على بعد أسابيع قليلة من هزيمته النهائية ، عندما قرّر زيارة المملكة . كان يتوقع من المملكة أن تنقذه من ورطته العسكرية مع تنزانيا ومع قائدها نيريري . لقد سخر عيدي أمين من نيريري أكثر من مرَة . قال له مرّة في إحدى برقيَاته «إنك رجل وسيم ولو كنت امرأة لما تردَدت في أن أتزوجك» . وعرض عليه مرّة في برقيَة أخرى أن يلتقيا في حلقة للملاكمة . إلا أن نيريري لم يضحك ولم

يبتسم . ولم يقبل عرض الملائكة . واحتضن عنصر المعارضة ضد عيدي أمين . واستغل سياسة عيدي أمين الخرقاء التي دمّرت اقتصاد أوغندا وأفسدت علاقاتها مع الشرق والغرب على حد سواء . ثم ضرب ضربته . عندما كان عيدي أمين يزور الرياض كانت القوات التنزانية تتقدّم بسهولة داخل أوغندا . وانهارت قوات عيدي أمين . كما انهارت القوات الليبية التي أرسلها معمّر القذافي لإغاثة عيدي أمين دون مقاومة تذكر .

كان الملك خالد في رحلة القنص السنوية في الصحراء عندما وصل عيدي أمين . وذهب الأمير فهد ليستقبله نيابة عن الملك . كنت أقف وراء الأمير . واقتربت الطائرة الخاصّة الصغيرة من طراز «جي تو» وفتح الباب . وظهرت أمامنا صورة ضخمة تزيّن جدار الطائرة لعيدي أمين وهو يرتدي البذلة العسكرية والأوسمة المعهودة . ولعلّ هذه الصورة ، بالإضافة إلى ظروف الحرب في أوغندا ، هي التي جعلتني أتوقّع أن أراه ينزل بالبذلة العسكرية . إلا أنه ظهر فجأة ببذلة غريبة أدهشت جميع المستقبلين . حوّل الأمير فهد وجهه بسرعة إليّ لكي لا تظهر ضحكته في الصور ولكي لا يراها الضيف .

كان عيدي أمين يرتدي زياً عربياً . منديل ضخم على رأسه أشبه ما يكون بفوطة الحمّام . فوق المنديل عقال من القصب الرخيص رأيت مثله آخر مرّة قبل سنوات طوال يباع للسوّاح في رحله . ثوب فضفاض تم أرنه مثيلاً في تفصيله . فوق ذلك «شيء» ملوّن بألوان عجيبة يلفّ الثوب . شكّلت هذه

النبرة النزاهية مع لونه الداكن صورة طريفة للغاية . ولعل أطرف ما في الأمر أن عيدي أمين جاء إلى المملكة وهو يظن أنه يرتدي الزيّ الوطني السعودي!

طلب الأمير فهد من أحد أمناء المراسم أن يحضر ثياباً سعودية حقيقية لعيدي أمين . وقد استغرق البحث عنها بعض الوقت نظراً لحجمه الكبير . وعندما ظهر عيدي أمين يخطر بالثوب السعودي في مأدبة العشاء ، سرت بسرعة إشاعة هي أن الثياب مستعارة منّي . إلا أن الإشاعة لم تكن صحيحة .

بعد العشاء دارت المباحثات بين الأمير فهد وعيدي أمين . كان عيدي أمين يمسك بورقة وقلم ويخط بين الوقت والآخر ، الأمر الذي يؤكّد أن ما قيل عن أميّته لم يكن صحيحاً . وبدأ يسرد مطالبه من المملكة وأنا أستمع بدهشة متزايدة ولا أكاد أصدّق أذني حتى خيّل إليّ في النهاية أنني أمام مشهد سينمائي :

- أريد أن تساعدني المملكة في ساعة الضيق . المملكة هي الصديق الحقيقي الوحيد لنا . لا تصدّقوا ما يقال عن مساعدات القذّافي لنا . القذّافي أعطانا وعوداً فارغة وكلمات كاذبة . أتعرفون ما أعطانا القذّافي؟! مدافع عاطلة وطلقات فاسدة ، لا شيء يذكر .

الواقع أنني شعرت أن في كلامه عن القذّافي الكثير من الجحود . مهما كانت دوافع القذّافي ، ومهما كانت نوعية رجاله أو أسلحته ، فلا شكّ أنه كان يحاول مساعدة عيدي أمين .

- نحن الآن في وضع مزرٍ جداً. نحن في وضع لا يحتمل التسويف. لا بد من إنقاذ ميزانية المملكة. نريد ألف مليون دولار بصفة عاجلة كمنحة من المملكة.

نظرت إلى الأمير فهد. إلا أنه ظلّ هادئاً لا يظهر عليه أي انفعال. كان يصغي باهتمام. كانت «المنحة» أوّل مطالب ولكنها لم تكن آخرها.

- ونريد مساعدة عسكرية في المملكة. نريد اثنتي عشرة طائرة عسكرية من طراز هيركيليس، ونريد دبّابات. ما لا يقلّ عن مائة دبّابة. ونريد عربات ميدان. ونريد أن تنقل الدبّابات والعربات عن طريق جسر جوّي.

هل يهذي صاحبنا؟!

كلا! إنه يتكلّم بمنتهى الجدّية:

- والوضع بالنسبة للوقود سيء جداً. جميع السيّارات واقفة في أوغندا. المواطنون يسيرون على أقدامهم. والقوات لا تستطيع التحرّك. نريد كميّات كبيرة من البترول تشحن إلينا بالطائرة.

هل انتهت الطلبات؟ انتهت العاجلة فقط:

- ونريد بعد ذلك قروضاً عديدة تساعدنا على إعادة تعمير البلاد. على أن هذه القروض يمكن أن تبحث فيما بعد بين المختصّين. المهم الآن هو المعونات العاجلة التي يتوقّف عليها مصير المعركة.

كان عيدي أمين -في الواقع- قد خسر المعركة. ولم تكن

كلّ هذه الطلبات الخيالية ، حتى ولو تحقّقت ، قادرة على قلب الميزان العسكري . ولكنه كان يتعلَق بقشّه من الأمل .

بعد أن انتهت قائمة المطالب العاجلة والآجلة ردّ عليه الأمير فهد بهدوء حسدته عليه .

- يا فخامة الرئيس . أشكرك على ما أوضحته . والمملكة لن تتأخَر في المساعدة . وجميع هذه الطلبات ستكون موضع الاهتمام من جلالة الملك ومن حكومته .

وبلباقة ، حوّل الأمير فهد دفّة الحديث إلى اتجاه آخر .

- نريد أن نعرف يا فخامة الرئيس تصوّراتك عن الأوضاع في منطقتك؟ لماذا سارت الأمور على هذا النحو؟ لماذا يحيط بك الأعداء من كل جانب؟

وجاء الجواب على الفور :

- لأنّني مسلم . لا شيء غير ذلك . لأنّني أدافع عن الإسلام . الشيوعيون يكرهونني لأنّني مسلم . والاستعماريون يكرهونني لأنّني مسلم . والمعارضة تكرهني لأنّني مسلم . لا يوجد هناك أي سبب آخر .

كان بودّي أن أقول لفخامة الرئيس إن العالم يعجّ بالقادة المسلمين الذين نجحوا في الاحتفاظ بعلاقات طيّبة مع العالم بأسره . ولكنني التزمت جانب الأدب . . . والصمت!

لم تكن هناك جدوى من أي بحث عن السياسة الدولية مع هذا الرجل . رغم أن الأمير فهد كرّر الرغبة في أن يستمع إلى «تحليل فخامة الرئيس للأوضاع» إلا أن فخامته لم يزدنا

إيضاحاً . ظلّ السبب الوحيد كونه مسلماً .

في اليوم التالي وكنت معه في السيّارة ، حاولت أن أستدرجه إلى حديث أستشفّ من خلاله جديداً عن شخصيته . ولكن محاولتي باءت بالفشل . كانت أجوبته قصيرة للغاية . وكرّر كلام البارحة نفسه .

- إنّهم يكرهونني لأنّني مسلم . إنني سوف أجبر كل المواطنين في أوغندا على ارتداء الزي الإسلامي (يشير إلى اللباس العجيب الذي كان يرتديه عند وصوله) . سأجعل منه الزي القومي الأوغندي . أمّا عن المبشّرين فسأقضي عليهم نهائياً . لقد حاربتهم وسأستمر في حربهم .

إسلام عيدي أمين -فيما يبدو- فيه الكثير من التحرّر . فهو لم يمنعه من البوهيمية في علاقاته النسائية . ومن الحفلات الصاخبة . وعند زيارة الملك فيصل لأوغندا أحضر عيدي أمين مجموعة من الفتيات المراهقات يرقصن على أنغام الطبول ويردّدون «إنا أعطيناك الكوثر» ، كان الملك فيصل يحاول أن يحوّل بصره عن المشهد بينما كان عيدي أمين سعيداً لأنه اعتقد أنه قدّم لضيفه مشهداً إسلامياً!

وتذكّرت وأنا معه في السيّارة الفيلم الذي شاهدته عنه والذي مثّل فيه ، هو نفسه ، دور البطولة . حديثه مع التماسيح ، المناورة التي قادها لتحرير الجولان ، توجيهاته المضحكة في مجلس الوزراء . وأدركت أن هناك شيئاً من الحقيقة في الأساطير التي تثار حوله . ولكن!

لا بدّ أن هناك شيئاً ما مكّن هذا الرجل من القفز إلى السلطة والاحتفاظ بها قرابة عقد من الزمن. لا بدّ أنه كان لديه بعض المواهب. لا بدّ أن يكون هناك شيء من الدهاء السياسي أو الجاذبية الشخصية. لا أستطيع أن أقول إن الرجل يفتقر إلى هذا كلّه. كل ما أستطيع قوله إنني خلال الفترة القصيرة التي راقبته فيها فشلت في اكتشاف أيّ موهبة.

ذهب عيدي أمين وقابل الملك خالد في الصحراء. وكرّر مطالبه. ووعده الملك بدوره ببحث الأمر. ثم غادر المملكة بمساعدة مالية بلغت بضعة ملايين من الدولارات. أمّا بقية الطلبات فقيل له إنها «ستدرس» بعناية.

بعد أسابيع قلائل تغلغلت قوات تنزانيا واكتسحت العاصمة. وفرّ عيدي أمين إلى صديقه اللدود القذّافي وتنفّس أصدقاء عيدي أمين في المملكة الصعداء.

إلا أن قصّة عيدي أمين مع المملكة لم تنته!

بعد فترة قصيرة قضاها في ضيافة الأخ العقيد، اكتشف عيدي أمين أنه تحت الإقامة الجبرية. فطلب اللجوء السياسي إلى المملكة. وأجيب إلى طلبه. وخصصت فيلا كبيرة في جدّة لإقامته مع عائلته. ثمة حقيقة مؤكّدة يعرفها المحيطون به وهي أنه بعد سنوات طويلة من الحكم خرج من أوغندا لا يملك قرشاً واحداً. ولا حساباً في بنك سويسري. هذا على الأقل شيء إيجابي لا بدّ أن نذكره له.

في جدّه يعيش عيدي أمين بهدوء معنياً بأمور عائلته

وعندئذ ثم يختفي فجأة من حياته [illegible] ثم تتلقى [illegible]
شخص إحدى الجرائد الكبرى في المغرب هاتفيا ليخبرها أنه عائد إلى الوطن ثم يرجع إلى حياته الهادئة.

هل يعود؟!

من يدري؟! لقد شهد التاريخ أحداثا أغرب من عودة الرجل الذي استطاع أن يكون قاهرا الامبراطورية البريطانية وحامل وسام الملكة فيكتوريا - في وقت واحد!

فاس... بين قمتَين

في صيف سنة ١٩٨١م أدلى الأمير فهد لوكالة الأنباء السعودية بتصريح عن القضية الفلسطينية . كان التصريح يحتوي على مشروع للسلام مكوّن من ثماني نقاط . وكانت النقاط تلخيصاً جيداً للموقف العربي المعتدل من القضية الفلسطينية . ولم تكن تخرج في جوهرها عن قراري مجلس الأمن ٢٤٢ و٣٣٨ بشأن الشرق الأوسط . تحدّث المشروع عن انسحاب إسرائيلي كامل . وعن دولة فلسطينية مستقلّة في الضفة الغربية وغزّة وعاصمتها القدس . وعن «تعايش» دول المنطقة . والواقع أنّني عندما استمعت إلى التصريح لم ألاحظ فيه أي شيء جديد أو مثير . اعتبرته واحداً من التصريحات التقليدية المعتادة . بعد نشر التصريح بقليل ، سافر الأمير فهد في زيارة خاصّة إلى المغرب .

إلا أن شيئاً غريباً حدث . بدأت ردود فعل عالمية تترى . صرّحت دول عربية عديدة أنّها تؤيّد المشروع . وأعلنت إسرائيل معارضتها العنيفة . وقالت الولايات المتحدة إن المشروع جدير بالدراسة . وأيّدته الصين الشيوعية بحرارة . والهند . وككرة

الثلج التي تبدأ صغيرة ثم تكبر مع انحدارها ، بدأ المشروع يكتسب قوّة دفع ذاتية لا أعتقد أن أحداً قد توقّعها - حتى صاحب التصريح نفسه . بعد التصريح بشهر كان مشروع الأمير فهد للسلام قضية الساعة في العالم العربي .

لا أحد يعرف كيف ولد هذا التصريح/ المشروع إلا الأمير فهد وأولئك الذين شاركوا في صياغته . حدث أن الأمير اجتمع قبل التصريح بليلتين بعناصر معتدلة من قيادة «فتح» وقضى معها وقتاً طويلاً . ولعلّ هذه الحادثة هي التي أدّت إلى ظهور انطباع عام ، في المملكة على الأقل ، أن المشروع يحظى بموافقة فتح ، أو على الأقل بعض العناصر المعتدلة فيها ، إلا أن كل هذا مجرد تخمينات .

وانقضّ المراقبون والمعلّقون على التصريح يوسّعونه تحليلاً وبحثاً . قال البعض إن هذه هي أوّل مرّة تتخذ المملكة فيها موقفاً واضحاً محدّداً من القضية الفلسطينية . وقال البعض إن هذه هي أوّل مرّة تقبل فيها المملكة «التعايش» مع إسرائيل . وقال آخرون إن هذه هي أوّل مرة تقوم فيها المملكة بمبادرة بدلاً من دورها المعتاد وهو تجنّب الأضواء والبعد عن المبادرات . يبدو لي أن السبب الحقيقي في الضجّة التي أثارها المشروع هو فشل اتفاقية «كامب ديفيد» في الوصول إلى تسوية شاملة . عندما صدر التصريح كان واضحاً ، حتى لأشدّ أنصار كامب ديفيد حماسة ، أن الاتفاقية قد انتهت كأساس لسلام شامل . ومن هنا تعلّق الجميع بالمشروع الجديد تعلّق الساري في ليل مظلم

ببصيص من ضياء . كان لسان حال الدول التي بدأت المشروع ، في تصوري ، يقول «من يدري! قد ينجح هذا المشروع حيث فشلت المشاريع التي سبقته» .

بعد عودة الأمير فهد أصدر توجيهاته إلى وسائل الإعلام السعودية بأن تكفّ عن الحديث عن مشروع فهد ، وتتحدّث عن «المشروع السعودي» . واستمرّت ردود الفعل المؤيّدة تتوالى لم يبق في المملكة سفير واحد إلا وأعلن تأييد بلاده للمشروع . كانت القمّة العربية الثالثة عشرة على وشك الانعقاد . وفجأة ، وبدون تخطيط سابق ، أصبح المشروع الموضوع الرئيسي في جدول الأعمال واختفت المواضيع الأخرى . بدأ الأمير فهد يبدي اهتماما متزايدا بتطوّرات مشروعه . أيّدت دول الخليج ، بدرجات متفاوتة من الحرارة ، المشروع فتحوّل أو كاد ، إلى مشروع خليجي . ومع تأييد عدد متزايد من الدول العربية ، بدأ الأمل يدبّ في النفوس في أن يتحوّل المشروع إلى مشروع عربي للسلام .

كان الأمير فهد ، بطبيعته ومن واقع خبرته السياسية الطويلة ، رجلاً يميل إلى السلام . كان يدرك أن أي مواجهة مع إسرائيل ، في ظل ظروف الفرقة العربية القائمة ، ستنتهي بانتصار إسرائيلي ساحق . كما كان يدرك أن موقف السادات من السلام لم يكن بالموقف الذي يمكن أن تجمع عليه الأمة العربية . كان الأمير فهد يرى أن السادات قد ضيّع الفرصة التاريخية التي تهيأت له لإيجاد سلام مشرّف . كما ضيع من

قبله عبدالناصر الفرصة التاريخية التي تهيأت له لقيادة العرب ضيّعها السادات بالاستسلام التام في آخر خطة. وضيّعها عبدالناصر برغبته في جعل الآخرين مجرد أتباع له. من هنا فقد كان يطمع في الوصول إلى ما فشل السادات في تحقيقه: إيجاد صيغة معقولة مشرّفة يتبنّاها العرب، أولاً، ويتبنّاها العالم، ثانياً، ثم تقوم الولايات المتحدة بالضغط على إسرائيل لقبولها. وكان يدرك أنه لا بدّ لكي تقبل هذه الصيغة من ثمن: الاعتراف بوجود إسرائيل. إلا أن هذا الاعتبار قد جاء في المشروع بعبارات غامضة كلّما حاول مسؤول سعودي تفسيرها، صدر بيان من الأمير فهد ينقض كل ما قاله.

ومع بشائر الإجماع كانت هناك نذر توحي بالقلق. كان أوّلها انعقاد مجلس التعاون الخليجي. كان المفروض في المجلس أن يتبنّى المشروع بحذافيره ثم يتقدّم به إلى القمّة العربية باسم المجلس. إلا أن الكويت في اللحظة الأخيرة اتّخذت موقفاً متردداً، الكويت، في ضوء حجمها وتركيبها السكّاني وتراثها وتقاليدها، تعاني حساسية مفرطة تجاه أي موضوع قد يثير المشاعر الفلسطينية، وبالتالي يثير مشاعر الفلسطينيين المقيمين في الكويت. رفضت الكويت، في ضوء غموض الموقف الفلسطيني من المشروع، تحويله إلى مشروع خليجي يتبنّاه المجلس. وأصرّت على موقفها. وفي النهاية صدرت عن المجلس عبارات مطّاطة مؤداها أن تتولى المملكة عرض المشروع أمام مؤتمر القمّة.

ثم كان هناك الموقف العراقي . كانت سياسة العراقيين المعلنة[16] من القضية الفلسطينية ثابتة من البداية : رفض أي تسوية مع إسرائيل مهما كان اسمها أو شكلها أو محتواها أو مصدرها . بل إن العراق انسحب من جبهة الرفض العربية احتجاجاً على ما اعتبره تخاذلاً واستسلاماً في الجبهة! كان العراق أكثر المزايدين على القضية . قاد العراق الحملة ضد مصر بعد كامب ديفيد ، وكان مسؤولاً إلى درجة كبيرة عن إجراءات المقاطعة التي اتخذت . ورغم العلاقات الودّية بين المملكة والعراق ، هذه العلاقات التي بدأت في منتصف السبعينات الميلادية وتوطدت في نهايتها ، ظلّ موقف العراق من المشروع السعودي موقفاً «مبدئياً» : «لا تحرجونا يا إخوان! أنتم تعرفون سياستنا نحو كل مشاريع السلام!» .

ثم كان هناك الموقف السوري . في البداية لم يعلّق السوريون على المشروع . ثم ظهرت مقالات في الصحافة السورية تنتقد المشروع . ثم بدأت الاتصالات المباشرة وتبيّن أن الرفض السوري منصّب على بند «التعايش» . أمّا بقية البنود فلا اعتراض لهم عليها . كان هذا ، في واقع الأمر ، بمثابة رفض كامل ، إذ إن بند التعايش هو الشيء الوحيد الجديد في الصيغة ، وهو الشيء الوحيد الذي أدّى إلى الترحيب العالمي بها .

---

(١٦) هذه السياسة «المعلنة» أما «الحقيقة» فموضوع آخر!

بعد ذلك كانت هناك عقدة العقد - موقف الفلسطينيين أنفسهم! كان المفترض، إذا صحّ أن المشروع وليد فتح، أو بعض عناصرها المعتدلة، أن يحظى بتأييد فوري من الفلسطينيين، أو من قيادة فتح على أقلّ تقدير. إلا أن شيئاً من هذا لم يحدث. الفلسطينيون الراديكاليون انتقدوا المشروع على الفور. قلّة قليلة من الزعماء غير البارزين هي التي جاهرت بتأييد المشروع. أمّا ياسر عرفات فكان، كعادته، يطلق عشرات التصريحات المتناقضة. يجيء إلى المملكة فيقول إنه شخصياً مع المشروع. ويغادر المملكة فيقول إن رأيه الشخصي لا يهم والمهم هو موقف قيادة منظمة التحرير. وفشلت كل محاولات الأمير فهد للحصول على موقف واضح من عرفات. في هذا الجو انعقدت قمّة فاس في نوفمبر سنة ١٩٨١م.

عندما وصلنا إلى فاس كان المشروع حديث الجميع. كان الأمير فهد في حيرة من أمره. كان من الواضح أن غالبية الدول العربية تؤيّد المشروع. وكان من الواضح أيضاً أن الأطراف المعنية مباشرة، سوريا والفلسطينيين متحفّظة على المشروع. سمع الأمير فهد أن بعض الأعضاء في الوفد الفلسطيني هاجموا المشروع بعبارات نابية. وسمع عن جهود مكثّفة بين السوريين والفلسطينيين لقتل المشروع. وزاده هذا حيرة. ثم اجتمع بالملك الحسن. واجتمع بالملك الحسين. واجتمع الملوك الثلاثة اجتماعاً مطوّلاً.

كان من الواضح أن هناك خيارين رئيسين:

١- التمسك بالمشروع ومناقشة أي تعديلات مقترحة أو التصويت عليه .

٢- سحب المشروع نهائياً .

كانت هناك مزايا وعيوب لكل خيار . مزايا الخيار الأول أنه سيثبت للعالم أن معظم الدول العربية تقف بجانب المبادرة السعودية ، وهذا ، في حدّ ذاته ، مكسب دبلوماسي لا بأس به . وكان عيب هذا الخيار أنه سيعيد تقسيم العالم العربي إلى متطرفّين ومتعدلين - أو بقاموس السياسة العربي ثوريّين ورجعيّين - وهذا أمر كان الأمير فهد يودّ أن يتحاشاه مهما كانت الظروف . أمّا عن سحب المشروع فميزته أن يريح المملكة من عبء الدفاع الطويل وقبول تمزيق بنود المشروع ، ويلقي بعبء فشل المؤتمر على عاتق الرافضين . إلا أن عيب هذا الخيار هو أنه يقضي على فرصة تاريخية في إقرار مشروع عربي موحّد للسلام ، فرصة قد لا تتكرّر أبداً .

منذ البداية كنت مقتنعاً بالخيار الثاني . كنت أرى أن أي مشروع للسلام لا يحظى بموافقة الفلسطينيين ، سوف يكون غير مقنع ، حتى لو وافقت عليه الدول العربية كلّها . فما بالك والدول العربية المعنية مباشرة غير موافقة . حاولت إقناع الأمير فهد بسحب المشروع . إلا أنه ظل متردداً . لقد أصبح المشروع مرتبطاً باسمه ، بحيث يصعب عليه أن يتخلّى عنه بسهولة . وكان بقية أعضاء الوفد ، الأمير سعود الفيصل وزير الخارجية ، وعبد الرحمن منصوري وكيل الوزارة ، يميلون إلى التفاوض مع

الرافضين بغية الوصول إلى صيغة مقبولة من الجميع .

في آخر لحظة اعتذر الرئيس السوري حافظ الأسد ، بعد أن كانت الطائرة وفيها حقائبه في انتظاره بمطار دمشق ، وأناب عنه عبدالحليم خدّام ، وزير الخارجية ونائب رئيس مجلس الوزراء . واعتذر الرئيس العراقي لانشغاله بالحرب مع إيران وأناب عنه عزّت إبراهيم ، الرجل الثاني في قيادة مجلس الثورة . واعتذر عدد آخر من رؤساء الدول . وكان واضحاً للملك الحسن أنه في غياب عدد من القادة البارزين ، وفي ضوء الخلاف على المشروع السعودي ، فإن المؤتمر لن يصل إلى أي قرار إجماعي . قرّر الملك الحسن أن ينسف المؤتمر قبل أن يبدأ ، عليه وعلى الغائبين وعلى الرافضين ، وهذا ما كان!

أدار الملك الحسن المؤتمر بعقلية المدرّس الصارم الذي يتعامل مع طلبته . كان يستخدم سلطات «الرئاسة» على نحو ديكتاتوري بلا خجل أو اعتذار . كان يتكلّم عندما يريد ويقاطع من يشاء عندما يريد . بدأ المؤتمر بمحاضرة طويلة ، أبدى فيها ألمه الشديد ، الذي تحوّل إلى جرح في قلبه ، لأن فاس ستكون «مقبرة» للقمّة العربية . وأضاف أنه لا معنى للقمة دون رؤساء دول . وقال إن رئيس الدولة هو الرجل الذي يملك حق التوقيع على قرار الحرب وقرار السلام . وقال إن قراراً سابقاً في مؤتمر قمّة سابق نصّ على ضرورة حضور رئيس الدولة شخصياً ، وفي حالة تعذّر حضوره ، إنابة الرجل الثاني في الدولة بموجب الدستور . واستعرض الملك الحسن الثاني الوفود واحداً واحداً ،

وقال إن عددا من رؤساء الوفود ليسوا من رؤساء الدول ولا من نوابهم . فكيف يمكن أن نسمّي المؤتمر مؤتمر قمّة؟! واقترح أن يعود الجميع إلى بلادهم سالمين غانمين حتى تتوفّر الفرصة لعقد مؤتمر قمّة «حقيقي» .

وهنا طلب خدّام الكلمة :

- يا جلالة الملك! وفد الجمهورية العربية السورية يحتجّ على ما ذكرتموه . لقد قدمنا بتفويض كامل من رئيس الجمهورية ونحن على استعداد لاتخاذ قرارات تلزم سوريا .

وردّ عليه الملك فوراً وبحدّة :

- إنني أقدّر موقف الأخ عبدالحليم خدّام . وهو صديقي منذ مدة طويلة . ولكن لا مجال للمجاملة هنا . إنني أقول له بصراحة إنه ليس رئيس دولة ولا نائباً دستورياً للرئيس . ولا يملك الحق في اتخاذ قرارات الحرب والسلام .

- إنني أعتبر هذا تعريضاً بالوفد السوري . وإنّني أفضّل الانسحاب فوراً .

وجاء الجواب قاطعاً :

- يا أخ عبدالحليم أنت بين أهلك وفي بلدك . إذا أردت البقاء معنا فأنت ضيف عزيز . وإذا أردت الخروج فلن يمنعك أحد . مطاراتنا مفتوحة يخرج منها من يشاء .

وتململ خدّام في مقعده . وجمع أوراقه . وهمّ بالخروج . ثم تهامس مع بقية أعضاء الوفد . ثم قرّر أن يبقى .

كان الملك الحسن في مزاج لا يخلو من عنف . عندما

حاول ياسر عرفات أن يلمّح إلى أن غياب البعض لا يمنع من النقاش المفيد . قاطعه الملك بعنف :

- يا أبو عمّار . أرجو ألا تعطينا دروساً في القانون الدستوري . أنا لا أحتاج إلى دروس منك في القانون .

وتراجع أبو عمّار بسرعة .

- العفو يا جلالة الملك! العفو! نحن نتلقّى منك الدروس!

كانت هذه هي البداية «السعيدة» للمؤتمر . وفي هذا الجو المشحون تحدّث عدد من الزعماء . ثم جاء دور ياسر عرفات . وبدأ بداية غريبة .

«كما تعرفون جميعاً فإنني لم أنم طيلة الليالي الماضية . . .» ولا أدري ، حتى هذه اللحظة ، لماذا افترض أبو عمّار أنّنا جميعاً كنّا ندري أنه لم ينم . ولا أدري ، حتى هذه اللحظة ، ما الذي منعه من النوم . ولا أدري ، حتى هذه اللحظة ، ما علاقة نومه أو صحوه بمؤتمر القمّة .

ثم قال :

- لقد اتخذت أمس أصعب وأخطر قرار في حياتي .

وساد القاعة صمت يملؤه التوقّع : هل سيؤيد المشروع؟ هل سيرفض المشروع؟ هل سيخرج بشيء أخطر من القبول والرفض؟

ومضى أبو عمّار :

- لقد قرّرت أمس أن أوقف الدراسة في المدارس الثانوية والإعدادية الفلسطينية في جنوب لبنان . كان من المؤلم أن

أحرم الطلاب من دراستهم . ولكنني اضطررت إلى اتخاذ هذا القرار لكي يقف الطلاب ، مسلّحين ، على حدود الأمّة العربية مع إسرائيل . أحب أن أعلن لكم يا قادة الأمّة العربية أن أشبال فلسطين يقفون الآن على أهبّة الاستعداد لحماية الأمة العربية .

طلاب المدارس الثانوية والإعدادية؟؟!!

أي والله! هذا ما قاله أبو عمّار بصوت حماسي متشنّج . وأصيب الحاضرون جميعاً بموجة من الوجوم .

تكلّم الملك حسين برصانة ومنطقية . كان ، في رأيي ، أبلغ المتحدّثين في هذه القمّة . تحدّث بهدوء وبتسلسل منطقي . تحدّث عن التغلغل الإسرائيلي . وعن الأراضي العربية المحتلّة التي تهدر كل يوم . وتحدّث عن الفرص التي ضاعت في الماضي . وناشد المؤتمر ألا يضيّع الفرصة السانحة اليوم . وأيّد المشروع السعودي بحرارة . ودافع عنه ببسالة . وقال إنه لم يعثر على بند واحد فيه إلا وسبق أن وافق عليه العرب ، على نحو أو آخر . وقال إن الحل العسكري غير وارد الآن ، واستشهد بأبي عمّار الذي زار الاتحاد السوفيتي مؤخراً . وقال أن الروس لا يؤيدون أية حلول عسكرية وليسوا على استعداد لتأييدها . وسأل أبو عمّار أن يؤكّد هذا أو ينفيه . واضطرّ أبو عمّار إلى تأكيده . ثم تحدّث عن الصمود الأردني . ودور الأردن رغم صغرها وضآلة إمكانياتها .

ثم تحدّث عبدالحليم خدّام بانفعاله المعتاد . قال إن سوريا

لا ترى أنه من المناسب الحديث عن السلام إلا بعد تحقيق التوازن الاستراتيجي . وأوضح المقصود بالتوازن الاستراتيجي : تسليح الجيش السوري تسليحاً كثيفاً يمكّنه من مواجهة إسرائيل . ودعا الأمّة العربية ، والأمّة العربية هنا تعني بطبيعة الحال الدول البترولية ، إلى أن تتحمّل واجباتها لتحقيق هذا التوازن . وأضاف أنه ما لم يتحقّق هذا التوازن فإن أي صيغة للسلام ستكون ، بالضرورة ، في صالح إسرائيل . وقال إنه يتكلّم «من حيث المبدأ» ولا يكنّ للمملكة العربية سوى كل تقدير . وقال إن سوريا مستعدّة لمناقشة المشروع السعودي وتعديله حتى يمكن قبوله . وتحدّث رئيس الوفد العراقي باختصار شديد ، وقال إن العراق يكنّ للمملكة كل احترام ولكنه مضطرّ إلى التحفّظ على المشروع «من حيث المبدأ» . وتحدّث رئيس الوزراء التونسي محمد مزالي مطولاً وبحرارة . وأيّد المشروع السعودي . وصمت الباقون . لم يتحدّث أحد من الخليج . لم يؤيّد أحد . ولم يعارض أحد . كان من الواضح أن الموقف الذي سيحسم الأمر هو موقف الفلسطينيين . وتحدّث ياسر عرفات عدّة مرّات . ناشد المؤتمرين أن يبقوا ويناقشوا . بكى واستبكى ، ظلّ يلفّ ويدور . انطلق من عموميات إلى عموميات . في النهاية كان من الواضح للجميع أن أبا عمّار لا يستطيع رفض المشروع ولا تأييده .

وهنا طلب الأمير فهد الكلمة :

– إن المملكة لم تحاول ، ولن تحاول ، فرض شيء على

أحد . إنني أدليت بتصريح لوكالة الأنباء السعودية يعبّر عن وجهة نظر المملكة . لم نقل إن هذا مشروع عربي ولم نطلب أن يتبنّاه أحد . غير أن عدداً من الدول في العالم أيّدته على الفور . ورغب عدد من الدول العربية الشقيقة أن نعرضه على المؤتمر . ووافقنا . غير أنّنا لم نلتزم مع دول عظمى أو غير عظمى بشيء . لسنا مقيّدين بشيء ولا ملتزمين بشيء تجاه أحد . لقد أتينا هنا للنقاش . وما يتم الاتفاق عليه فنحن ملتزمون به سواء ضمن المشروع السعودي أو خارجه . ولكننا لم نأت هنا لكي نجرّح أو نهان(١٧) . إنّني لا أقبل أن يجرّح أي إنسان المملكة . اتفقوا على ما شئتم ونحن معكم . إنّني باسم زملائي وباسمي أسحب الآن المشروع السعودي نهائياً من جدول الأعمال .

عندما انتهى الأمير فهد كان هناك تصفيق حاد من جانب بعض المؤتمرين . كان كلمته هي الوحيدة التي أعقبها تصفيق . ولم يكن من الواضح هل صفّق المصفقون ابتهاجاً بسحب المشروع أم تأييداً لهذا الموقف الحازم . وحتى الأمير فهد نفسه كان يتساءل فيما بعد عن دوافع التصفيق .

كانت هذه قنبلة لم يتوقّعها أحد سحبت المقاعد من الذين خطّطو لنسف المشروع ، وسدّت الطريق أمام الذين أرادوا

---

(١٧) كان الأمير فهد يشير إلى ما تردد في أروقة المؤتمر من تعريض لا إلى كلمات المتحدّثين في القاعة . وهي ، للحق والتاريخ ، لم تتعرّض للمملكة بأي تجريح أو إهانة .

مناقشته وتغييره . وتوالت الرجاءات بعدم سحب المشروع . تكلّم الملك حسين فعارض السحب . وتكلّم ياسر عرفات فعارض السحب . وقال أمير الكويت إن المشروع يجب أن يبقى ويناقش . وقال مزالي إن المشروع لم يعد بالإمكان سحبه . ولم تكن كل هذه الرجاءات خالصة لوجه الله . كان هناك شعور عام أن سحب المشروع يعني نهاية القمّة . وهذا يعني أن تبقى المطالب الفلسطينية والسورية والأردنية واللبنانية دون مناقشة ودون دعم جديد «من الأمّة العربية» . تكلّم إلياس سركيس كلاماً دامعاً ناشد فيه القادة ألا يذهبوا حتى ينظروا في مأساة لبنان . وأصرّ الأمير فهد على سحب المشروع . وكرّر أنه لن يسمح لأحد أن يجرّح المملكة . وجاءت رجاءات جديدة . في النهاية حسم الملك الحسن الموقف وإن كان قد نسب القرار إلى المؤتمر . قرّر الملك الحسن أن المؤتمر «علّق جلساته» إلى دورة قادمة ، وأنه لا زال منعقداً ، وأن المشروع السعودي لا زال على جدول الأعمال .

كان هذا أوّل مؤتمر قمّة «يعلّق» -ويبقى منعقداً في الوقت نفسه! ولا أدري على أي أساس دستوري استند الملك الحسن في هذا القرار . إلا أنه لم يكن هناك خيار آخر . واضطرّ المؤتمر إلى مجاراة الملك الحسن . وهكذا انتهى مؤتمر القمّة بعد جلسة واحدة استغرقت زهاء سبع ساعات .

سافر الأمير فهد إلى ماربيا في أسبانيا . كان يعاني الكثير من الكآبة وخيبة الأمل . بقي في قصره طيلة الوقت ولم يخرج

سوى مرّة واحدة . كان يتحدّث عن الموقف العربي بيأس . كان يقول :

- إن أراضينا لم تحتل وشعوبنا لم تشرّد ، وقد فعلنا كلّ هذا من أجلهم فماذا كانت النتيجة؟ أن نجرّح ونشتم .

كان يردّد بعض ما قاله أحد أعضاء الوفد الفلسطيني خارج القاعة .

- لماذا تتدخّل المملكة؟ نحن قابلون بتشريد أبنائنا . واحتلال أراضينا . قابلون بهذا الوضع ولا نريد السلام .

كان يقول :

- كيف يمكن التفاهم مع أمثال هؤلاء؟

هذه ، باختصار ، قصّة الدورة الأولى من قمّة فاس ، أو بتعبير أدق قصّة الأحداث التي عاصرتها من الدورة الأولى ، فماذا عن الدورة الثانية؟

مرّت بين الدورتين عدّة أحداث ، وجدّت أمور ، وتغيّرت سياسات . مات الملك خالد وتولّى الأمير فهد الحكم وأصبح المشروع مشروع «الملك فهد» . أمّا عن المؤيّدين للمشروع فقد استمرّ تأييدهم ولم تؤثّر فيه الحوادث التي استجدّت . أمّا عن المعارضين فقد دفعتهم الظروف المتغيّرة إلى أن يتغيّروا معها وإلى أن يتحوّلوا تدريجياً إلى مؤيدين للمشروع السعودي ، بدرجات متفاوقة من الحماسة ، وربّما من الصدق . ولعلّنا سنصل إلى فهم أفضل لما حدث إذا استعرضنا موقف المعارضين واحداً واحداً .

فلنبدأ بالعراق . عند انعقاد الدورة الأولى كان الرئيس صدّام حسين يشعر بالكثير من الزهو لما حقّقه الجيش العراقي من انتصارات ومكاسب إقليمية في حربه مع إيران . كان يتوقّع أن تنتهي الحرب في شهور قليلة بانهيار النظام الثوري في إيران . إلا أن شيئاً من هذا لم يحدث . تحمّل الإيرانيون الصدمة الأولى وصبروا على فقد أراضيهم ثم حشدوا الحشود . واستمرّت الموجات البشرية الواحدة بعد الأخرى تستنزف العراق . ولم تؤثّر القلاقل في داخل إيران ولا التغييرات ولا الانفجارات على صمود الإيرانيين . تدريجياً بدأ صدّام حسين يدرك أن الأمر أخطر من أن يكون مجرّد نزهة عسكرية قصيرة . بدأ اعتماده المالي على المملكة ، بوجه خاص ، وعلى دول الخليج ، بوجه عام ، يزداد .

تجاوزت «القروض» الخليجية عشرة بلايين دولار . غير المساعدات المختلفة الأخرى . بدأ العراق يبحث عن حلفاء في حربه مع إيران . لجأ إلى مصر التي قاد الحملة لمقاطعتها ، في طلب الأسلحة . وبديهيّ في ضوء هذه المتغيّرات كلّها أنه لم يعد هناك أي مبرّر للتحفّظ العراقي على المشروع السعودي .

أمّا عن سوريا فقد خرجت من أزمة الغزو الإسرائيلي للبنان وهي في وضع لا تحسد عليه . خسرت سوريا ، باعترافها ، حوالي تسعين طائرة وأربعمائة دبّابة وأربعة آلاف جندي ، وكل صواريخها في البقاع . ولم تستطع مع ذلك إثبات أي فعالية في وقف الغزو الإسرائيلي . وبدت أمام العالم كلّه

كما لو تخلت عن الفلسطينيين وتركتهم لقدرهم مع قوات الغزو الإسرائيلية . التفّت سوريا إلى المملكة تطلب المساعدة الماديّة ، لتعويض الخسائر ، والتأييد المعنوي . وكانت المملكة حريصة ، عبر التقلبّات في السياسة العربية كافة ، ان تحتفظ بعلاقات جيّدة مع سوريا . قبل انعقاد الدورة الثانية بأسابيع جاء خدّام واجتمع طويلاً مع الملك فهد . أخبره أن سوريا ستؤيّد المشروع السعودي إذا غيّرت عبارة التعايش . وتمّ الاتفاق على صياغة جديدة مؤدّاها أن يضع مجلس الأمّة الترتيبات الكفيلة بحفظ السلام بين الدول في المنطقة . وكان هذا تغييراً لفظياً على أية حال . كما أن الملك فهد وعد خدّام بأن تستمرّ المملكة في دعم سوريا ، وأن تبذل جهدها مع الأشقّاء في الخليج للحصول على دعم جديد منهم لسوريا .

أمّا عن الفلسطينيين فقد علّمتهم التجارب المريرة خلال حصار بيروت أن موقف المملكة كان شعاع الأمل الوحيد في ليل من الظلام الحالك .

انفّض عنهم كل الأصدقاء والحلفاء . معمّر القذافي أرسل إليهم برقية يدعوهم فيها إلى الاستشهاد في بيروت عن بكرة أبيهم ، وقال إن التاريخ سيلعنهم إذا لم يموتوا جميعاً تحت أنقاض بيروت . بعدها تقدّم باقتراح صبياني هو أن يقود الجيوش العربية بنفسه إلى لبنان . واعتبر الاقتراح نكتة ثقيلة لم يعرها أحد أدنى اهتمام . الروس اكتفوا بالشجب والإدانة والتحذير . جبهة الرفض ، أو جبهة الصمود والتصدّي ، أثبتت

أن الحديث المنمّق عن الصمود والتصدّي شيء أمّا الصمود والتصدّي في ميدان المعركة فشيء آخر . لم يتحرّك أحد لنجدة الفلسطينيين والكمّاشة الإسرائيلية تطبق عليهم . في ظلّ هذه الظروف ، كانت علاقة المملكة بالولايات المتحدة خيط الأمل الوحيد . حال بدء الغزو اتصل ياسر عرفات بالملك خالد هاتفياً وظلّ يردّد «واخالداه!» .

إلا أن صحة الملك خالد بدأت تتدهور . وبعد الغزو بأيّام توفي في الطائف . ولعب الملك فهد دوراً كبيراً خلال الأزمة . اتصل بالرئيس الأمريكي ريجان عدّة مرّات هاتفياً . وعندما اقتربت قوات الغزو الإسرائيلي من بيروت ، اضطرّ إلى إيقاظه من نومه . ولعب دوراً كبيراً خلال المفاوضات التي انتهت بوقوف القوات الإسرائيلية على مشارف بيروت وانسحاب المقاومة الفلسطينية . خرج ياسر عرفات من الأزمة وفي نفسه شعور عميق بالاعتراف بالجميل نحو المملكة ، عبّر عنه في برقية طويلة مؤثرة إلى الملك فهد . كان من الصعب ، والحالة هذه ، أن تعارض القيادة الفلسطينية المشروع السعودي برغم تحفّظات العناصر المتطرّفة .

دول الرفض هذه المرّة كانت أقلّ رفضاً . أعلن القذافي أنه لن يحضر مؤتمر القمّة حتى «لا تتحطّم آمال الجماهير العربية» ، وبالتالي فوّت على نفسه فرصة نسف المؤتمر . جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية لم تتّخذ أي موقف علني مناوئ للمشروع . الجزائر كان موقفها التقليدي هو تأييد أي شيء يقرّه الفلسطينيون .

فيما يتعلق بدول مجلس التعاون الخليجي ؛ أرسلني الملك فهد إليهم لشرح آخر التطوّرات ولاستطلاع مواقفهم وحثّهم على تقديم المزيد من الدعم لسوريا . وقد تبيّنت خلال الجولة تأييداً واضحاً للمشروع السعودي ، وإصراراً أن تتمسّك المملكة به هذه المرّة . وإن كانوا أقلّ حماساً فيما يتعلّق بدعم سوريا ، متعللين بالظروف الاقتصادية التي واكبت انخفاض معدّلات الإنتاج في البترول .

كان من الواضح ، في ضوء هذا كله ، أن الفرصة مهيأة تماماً لتحوّل المشروع السعودي إلى مشروع عربي للسلام .

إلا أنه مع اقتراب القمّة جدّ تطوّران هامّان ، أوّلهما على الساحة الدولية والآخر على الساحة العربية . أمّا الأوّل فإعلان الرئيس ريجان مشروعه للسلام في الشرق الأوسط . كانت هناك عدّة عوامل تفاعلت وأدّت إلى صدور هذا المشروع . من ناحية استقال هيج ، الذي أثبت طيلة عمله كوزير للخارجية انحيازاً واضحاً لإسرائيل ، وحلّ محلّه وزير خارجية جديد بدا أكثر تعاطفاً مع العرب . من ناحية ثانية ، أثّر الغزو الإسرائيلي للبنان ، وكان التليفزيون الأمريكي ينقله بتفاصيله الدامية إلى كل بيت في أمريكا ، على الرئيس الأمريكي وجعله مصمّماً على القيام «بشيء ما» حتى لا تتكرّر الأحداث المؤلمة التي شاهدها بنفسه على الشاشة الصغيرة . من ناحية ثالثة ، بدأ الرئيس الأمريكي يتأثّر من النقد الموجّه إليه في ميدان السياسة الخارجية ، والذي كان يذهب إلى أنه لا يملك أي «تصوّر»

واضح ولا «رؤية» محدّدة .

كان المشروع قديماً وجديداً في الوقت نفسه . أمّا عن كونه قديماً فالمشروع لم يتضّمن نقطة واحدة لم تتعرّض إليها من قبل تصريحات عديدة لمسؤولين أمريكيين بدرجات متفاوتة من الوضوح والغموض . كرّس المشروع مواقف أمريكية تقليدية ، كمعارضة الدولة الفلسطينية المستقلّة ، وعدم الاعتراف بمنظمّة التحرير ما لم تعترف بحق إسرائيل في البقاء ، والإصرار على التفاوض المباشر بين العرب وإسرائيل . غير أنه ، رغم ذلك ، كانت هناك جوانب جديدة جديرة بالاهتمام . لأوّل مرّة ، يتحدّث رئيس أمريكي بوضوح تام عن ضرورة عودة الضفة الغربية وغزّة للسيادة العربية ، ويرفض الادعاءات الإسرائيلية بالسيادة الدائمة عليها . لأوّل مرّة يدين رئيس أمريكي المستوطنات الإسرائيلية بهذا الجلاء . لأوّل مرة ، منذ فترة طويلة ، يكون الشرق الأوسط الموضوع الوحيد في خطاب تليفزيوني طويل يلقيه الرئيس . كان الأمريكيون يدركون أن التصريح لن يرضي لا الإسرائيليين ولا العرب ، ولن يحقّق سائر مطالباتهم . وبالفعل ، هاجمه الإسرائيليون بعنف من اللحظة الأولى . كان واضحاً أن أي إدانة عربية جماعية للتصريح ستؤدى إلى وأد مبادرة ريجان في مهدها . أرسل ريجان رسالة شخصية إلى الملك فهد يرجوه فيها أن يبذل مساعيه حتى لا يقف مؤتمر القمّة من المبادرة موقفاً معادياً لا يترك مجالاً للحوار . ووعده الملك بأنه سيحاول .

أمّا على المستوى العربي فقد اتّخذت الأزمة بين سوريا والعراق أبعاداً جديدة من التصعيد . بدأت حوادث النسف والتفجير تتزايد في البلدين . ازدادت الحملات الإعلامية ضراوة . أغلقت سوريا خط البترول الممتد من العراق إلى البحر الأبيض المتوسّط ، مكلّفة العراق بذلك خسائر ماديّة جسيمة . فشلت كل محاولات المملكة في إعادة العلاقات إلى سالف عهدها بين الطرفين . كانت الأردن تقف مع العراق بحزم . وأدّى تفاقم الخلاف السوري العراقي إلى أزمة متجدّدة في العلاقات السورية الأردنية . اتهمت سوريا الأردن بمناصرة الإخوان المسلمين الذين كانوا يسعون لقلب نظام الحكم السوري .

عندما انعقد المؤتمر كان من الواضح أنه لن تكون هناك مشكلة تذكر فيما يتعلّق بالمشروع السعودي . إلا أنه كان من الواضح أن المؤتمر سيصطدم بعقبات كبرى عديدة . بدأت أول مشكلة قبل أن يجتمع القادة ، اقترح الملك الحسن أن يقوم الملوك والرؤساء جميعاً باستقبال ياسر عرفات في مطار فاس ، وذلك كمظاهرة جماعية لتأييد القائد الفلسطيني الذي حوصر وصمد ، في بيروت أكثر من ثمانين يوماً . وافق الجميع ما عدا الرئيس حافظ الأسد ، فقد عارض الفكرة من حيث المبدأ ، أولاً ، ثم اعتذر عن الحضور . كانت العلاقات السورية/ الفلسطينية فاترة . ياسر عرفات كان يعتقد أن السوريين تخلّوا عنه . وسوريا كانت ترى في موقف القائد الفلسطيني الكثير من الجحود .

في بداية المؤتمر قـرّر القـادة تشكيل لجنة من عـدّة رؤسـاء لتصوغ مشروع السلام العربي . تعقّد الموقف قليلاً عندما اقترح رئيس وزراء تونس العودة إلى مشروع التقسيم الذي طرحه الحبيب أبو رقيبه في الستينات . وقد استطاعت اللجنة أن تحلّ هذا الإشكال بالإشارة في الديباجة إلى فكرة «المجاهد الأكبر» الرائدة . وتعقّد الموضوع مرة ثانية عندما عادت اللجنة بالصيغة جاهزة للإقرار وهي نسخة شبه حرفية من المشروع السعودي مع التعديل السوري لبند التعايش . وكان مصدر التعقيد هذه المرّة الرئيس السوداني جعفر نميري . كان الرئيس نميري خلال المؤتمر يمرّ بحالات من شرود الذهن تؤدي إلى حرج شديد . وكانت هذه إحداها . أصرّ الرئيس نميري على «إعادة ترتيب» البنود لكي تكون «أكثر منطقية» . كان الملك فهد يتميّز غيظاً . لم يخطر ببال الرئيس السوداني أن الصيغة استغرقت أكثر من سنتين من العناء والجهود المريرة ، وأن ترتيب البنود الآن ليس بالأمر المهم . في النهاية لم ينقذ الموقف سوى تدخّل الملك الحسن الحازم ، ومناشدته للرئيس السوداني أن يترك المشروع كما هو .

لم يستغرق مشروع السلام -هذه المرّة- سوى ساعتين من وقت المؤتمر . وانصرف المؤتمر إلى المشاكل الأخرى .

احتلّت الأزمة السورية/العراقية موقع الصدارة ، وخصّص لها المؤتمر عدّة جلسات طويلة استغرق بعضها أكثر من خمس ساعات . تحدّث الملك حسين في البداية ثم ترك المجال

للمصارعين الرئيسيين . تحدّث الرئيس صدّام حسين طويلاً . وتحدّث الرئيس حافظ الأسد طويلاً . كانت الجولة بينهما مباراة في الفصاحة والبلاغة ونشر الفضائح على نحو لم تشهد له قمّة عربية ، أو غير عربية ، مثيلاً . عدّد الرئيس العراقي نقاط الخلاف واحدة واحدة . «وجرائم السوريين» واحدة واحدة . ووعدد الرئيس السوري نقاط الخلاف واحدة واحدة ، «وجرائم العراقيين» واحدة واحدة . وانهالت الاتّهامات بوقائعها .

- في اليوم الفلاني أنتم قتلتم فلاناً وفلاناً وفلاناً .
- في الشهر الفلاني أنتم تآمرتم علينا مع فلان وفلان .
- في الساعة الفلانية أنتم فجّرتم السيارة الفلانية .
- في التاريخ الفلاني أنتم اغتلتم القائم بالأعمال الفلاني .

كان قادة الأمّة العربية يصغون بوجوم وذهول إلى قائدي جناحي البعث يستعرضان محاولة كل جناح تصفية الآخر . رغم هذا «العتاب» العلني ، ورغم كل المحاولات الجانبية للتقريب من وجهات النظر ، فقد انتهى المؤتمر تاركاً الأزمة السورية/العراقية كما وجدها .

ثم ناقش المؤتمر موضوع عودة العلاقات بين الدول العربية ومصر . كان اغتيال السادات قد أزاح عن طريق العودة عقبة كأداء . ذلك أن السادات ، بتصريحاته الاستفزازية ، جعل من المستحيل البدء في أي حوار بنّاء بين مصر والعرب الذين قاطعوها . أمّا خلفه حسني مبارك فقد انتهج أسلوباً آخر بعيداً

عن المهاترة والانفعال .

أثبتت أزمة لبنان أن الأمّة العربية بدون مصر لا تستطيع أن تدخل أي مجابهة عسكرية مع إسرائيل . كان «تحييد» مصر في النزاع العربي/الإسرائيلي بمثابة الضوء الأخضر الذي ترك إسرائيل تصول وتجول في المنطقة . بدأ العراق يستعين بمصر كمصدر للسلاح . بدأت الأردن ، تحت وطأة الضغط السوري العنيف ، تشعر بضرورة عودة مصر كطرف معتدل في المعادلة العربية . كان الملك الحسين متحمساً لإعادة العلاقات . غير أنه كانت هناك معارضة عنيفة لعودة العلاقات مع مصر تزعّمتها سوريا .

بدأ النقاش بخطاب بليغ طويل ألقاه الرئيس السوداني وطالب فيه بإعادة العلاقات فوراً مع مصر . ولا أدري لماذا شعرت وأنا أستمع إلى الخطاب أنه أعد بحذافيره في وزارة الخارجية المصرية . استغرق الخطاب حوالي ساعة وكان مكوّناً من عشرات الصفحات . ومع ذلك فقد اعتذر الرئيس نميري في نهاية حديثه عن «اضطراره إلى الإيجاز» . تحدّث عبدالحليم خدّام بانفعاله المشهور وعنترياته وعارض بشدّة أي اتجاه في هذا السبيل . تحدّث الملك الحسن ودعا إلى بدء حوار جديد مع مصر . وقال للمؤتمرين إن المغرب تنوي على أية حال أن تبدأ مثل هذا الحوار منفردة . تكلّم صدّام حسين كلاماً فضفاضاً مطّاطاً خرج فيه بنتيجتين متناقضتين . الأولى ، هي أن قرار مقاطعة مصر كان قرار حكيماً لأنه استند إلى أسباب تاريخية

في قمّة بغداد التاريخية . والثاني ، أن المتغيّرات الجديدة تفرض تغييراً في القرار! تحدّث صدّام حسين حديثاً أشبه ما يكون بالألغاز «عن الأصالة في الرؤية القيادية المتحرّكة» . ثم انتهى باقتراح لجنة تدرس الموضوع بهدوء . وكان بوسعه أن يقترح اللجنة دون ن يخوض بنا في هذه الفقاقيع اللفظية . ثم تحدّث حافظ الأسد . وكان أبلغ من تحدّث في هذا الموضوع . تكلّم برصانة ودون انفعال وبتسلسل منطقي واضح . شرح أنه لم يجد جديد في الموقف المصري . وبيّن أن اتفاقية كامب ديفيد ، بكل قيودها على السيادة المصرية ، لم تتغيّر . وبرهن على أن مصر لم تطلب من أحد «المعذرة أو المغفرة» . أعتقد أن الأسد تمكّن من اقناع المتردّدين بعدم اتخاذ أية خطوة في اتجاه التطبيع . في النهاية ، كان هناك اتفاق بألاّ يتّخذ المؤتمر أي قرار رسمي بشأن مصر ، وأن تستمرّ الدول التي لم تقطع علاقاتها مع مصر في التحاور معها ، وأن يكون المجال مفتوحاً أمام أي دولة ترغب في إجراء اتصالات ثنائية مع المصريين .

ثم جاءت الأزمة الفلسطينية/ اللبنانية . كان كل من الطرفين يشعر أنه قدّم من التنازلات ما يكفي ، ولم يعد ثمة مجال لتنازلات جديدة . كان اللبنانيون يتنفسّون الصعداء لأنّهم تخلّصوا من «الاحتلال الفلسطيني» ، ولم تكن لهم أدنى رغبة في العودة إليه . تقدّموا للمؤتمر بورقة عمل تتضمّن فرض السيادة اللبنانية على كل فلسطيني يقيم في لبنان . وكان الفلسطينيون يشعرون أنّهم دافعوا عن كرامة لبنان ، ببسالة .

وكانوا مصرّين على التمتّع بأوضاع خاصّة داخل لبنان تسمح لهم بالاستمرار في ممارسة نشاطهم السياسي . كان النقاش بين الطرفين عاصفاً ، وكان من الواضح أنه لا يوجد أي مجال لحل الوسط . كان رئيس الوفد اللبناني ، جوزيف أبو خاطر ، شيخاً ظريفاً شديد الانفعال . في أحد الاجتماعات الجانبية وضع أحد أعضاء الوفد الفلسطيني قلم الرصاص الذي كان على الطاولة في جيبه . وانقضّ عليه أبو خاطر متهكماً .

– هذا طبعكم أيّها الفلسطينيون . تسرقون كل شيء . حتى أقلام الرصاص .

في أثناء النقاش أشار إلى الملك فهد فقال «الملك خالد» وصحّح الملك الحسن خطأه . فما كان منه إلا أن قال بلهجة جبلية محببة :

– وأنا شو قلت؟! سلامة قلبك! سلامة قلبك!

أصرّ الفلسطينيون على رفض ورقة العمل اللبنانية . وقدّموا اقتراحات مضادّة . إلا أن اللبنانيين تمسّكوا بكل «حرف» في ورقتهم . نشط الملك فهد للوساطة . وتحرّك رؤساء آخرون . وخصّصت اجتماعات جانبية عديدة لتقريب وجهات النظر . إلا أن كل هذه المحاولات وصلت إلى طريق مسدود . وانتهى المؤتمر دون أن يتمكّن من اتخاذ قرار ينظّم العلاقات الفلسطينية/ اللبنانية .

ثم جاء دور مبادرة ريجان . قالت الدول المعتدلة إنّها تستحق الدراسة وإنه ينبغي التريث قبل أن تدان . الغريب أن

أكثر الذين تكلموا اعترفوا في بداية حديثهم أنهم لم يقرأوا خطاب الرئيس الأمريكي بأكمله، ولم يدرسوا المبادرة. تحدّث الرئيس الأسد وقال إنه يرحّب بالحوار مع الولايات المتحدة. ولكنه يعارض الإشارة إلى المشروع الأمريكي دون غيره. وقال إن الروس دعّموا القضية العربية بإخلاص وصدق بينما كان الأمريكيون يقفون دائماً وراء إسرائيل. قال إن هناك مشروعاً روسياً للسلام لا بدّ من الإشارة إليه. كاد المؤتمر أن يقف عند طريق مسدود. وعندما حاول الملك الحسن -كعادته- استخدام سلطات الرئاسة للضغط على سوريا، ردّ عليه الرئيس الأسد فوراً -وبحزم- أن سوريا لن تتردّد في رفض أي قرار لا يناسبها. وهدأ الملك الحسن ولجأ إلى أسلوب الإقناع الهادئ. وقال - فيما قال- «يؤخذ بالعسل ما لا يؤخذ بالخلّ». وطال النقاش. وتعدّدت المقترحات للوصول إلى صيغة يرتضيها الجميع. وتحدّث الملك فهد محاولاً المساعدة في الوصول إلى هذه الصيغة. وطلب الوفد السوري فرصة للتشاور مع الوفد الفلسطيني. في النهاية توصّل المؤتمر إلى قرار تشكيل لجنة برئاسة الملك الحسن تزور «الدول الأعضاء في مجلس الأمن» لشرح مشروع السلام العربي. وتضمّن القرار إشارة حيادية إلى المشروع الأمريكي لا تنطوي على تأييد أو معارضة. ومرّت هذه المشكلة بسلام.

أصرّ العراق على أن يتّخذ المؤتمر قراراً اجماعياً بتأييد العراق في حربه مع إيران، انطلاقاً من ميثاق الدفاع العربي المشترك

الموقع في ظلّ الجامعة العربية . كنت أتوقّع في ضوء الانحياز السوري والليبي الواضح إلى إيران ، أن يعترض الوفدان على أي بيان من هذا النوع أو يتحفّظا على بعض فقراته . إلا أن الوفدين قد أدركا ، فيما يبدو ، أن مثل هذه «الإعلانات» لا تقدّم ولا تؤخّر فلم ينطقا بحرف واحد . وصدر في النهاية بيان من المؤتمر ينطوي على تأييد لموقف العراق .

بعد هذا كلّه جاءت قضايا العرب «المستعربة» ، الصومال وجيبوتي ، ومشاكل القرن الأفريقي مع الحبشة . تكلّم الرئيس الصومالي محمد زياد بري وترجم له وزير خارجيته ، ولم يكن المترجم بأفصح من المترجم له . وقال بعض الخبثاء إن وزير الخارجية ، على قصر باعه في اللغة العربية ، عيّن في هذه الوظيفة لأنه صهر الرئيس . وتحدّث ياسر عرفات بانفعال شديد لم يكن له مبرّر ودافع عن الحبشة بحماسة . وقال إن منظّمة التحرير ستلقي -بكل ثقلها-! للتوسط في النزاع . وكان الرئيس الجيبوتي يتململ في مقعده ويهمهم ويدمدم بهدوء .

استنفد المؤتمرون طاقاتهم في هموم الشرق العربي ، ولم تكن لديهم الطاقة أو الرغبة في الدخول في المتاهات الأفريقية . استمع المؤتمر إلى خطابات طويلة - كان أطولها خطاب الرئيس النميري- وقرّر في النهاية دفن المشكلة في قرار غامض ناشد فيه كل الأطراف أن «تحترم السيادة الإقليمية لكل دولة في المنطقة» ودعا إلى المزيد من الحوار البنّاء .

على هامش المؤتمر كان هناك العديد من اللقطات الإنسانية

الطريفة . أخبرنا الملك فهد أنه في الاجتماع التمهيدي الذي حضره القادة وحدهم ، اقترح الملك الحسن أن يقتصر حضور الجلسات على رئيس الوفد وعضوين فقط . طلب الرئيس الجيبوتي من الملك فهد أن يشرح له المقصود . ولمّا أوضح له الملك فهد ردّ بلكنته العربية المكسّرة :

-اثنين وزير؟ أنا عندي أربعة! أنا فين حط الباقي؟ حطه في جيبي!

وأوضح له الملك فهد أنه ليس هناك ضرورة لوضع الوزيرين في جيبه . وأن بإمكان الرئيس أن يختار أي عضوين يراهما ويترك الباقين في مقرّ الإقامة . وعندما شعر الملك فهد أن الرئيس لم يستوعب كل ما قاله ، حاول أن يشرح له الوضع بالإنجليزية (كانت إنجليزية الملك فهد أفضل ، بالتأكيد ، من عربية الرئيس الجيبوتي) ، إلا أنه انتفض محتجّاً وقال :

- إنت كلّم انجليزي ليه؟! أنا أربي زيّك! أنا أحكي أربي!

كان مقعد الملك فهد في القاعة بين رئيس السودان ورئيس جيبوتي . وبقدر ما كان نميري يثير استياء الملك بتعليماته التي تصدر وهو شارد الذهن ، بقدر ما كان يستظرف الرئيس الجيبوتي . في الدورة الأولى من المؤتمر كان غضب الرئيس الجيبوتي يتزايد عندما تبيّن له أن المؤتمر لن يوافق على المشروع السعودي . وبدأ يهمهم ويدمدم كعادته . ثم قال موجهاً كلامه إلى الملك فهد .

- أنت اسكت! أنا أتكلم! أنا أنا أسُبّهم كلهم!

وبجهد جهيد استطاع الملك فهد إقناعه أن المشكلة لن تحل بسبَ قادة الأمّة العربية كلّهم!!

أخبرنا السيد أحمد عبدالوهاب أن الملك فهد ترك لنا مهمّة اختيار العضوين اللذين سيرافقان الملك في حضور الجلسات . كان الوفد الرسمي السعودي يضم من الوزراء الأمير سعود الفيصل وزير الخارجية ، وأحمد زكي يماني وزير البترول والثروة المعدنية ، ومحمد أبا الخيل وزير المالية والاقتصاد الوطني ، وكاتب هذه السطور . كان هناك إجماع فوري على أن يحضر الأمير سعود ، بصفته وزير الخارجية ، الجلسات كافّة . أمّا عن العضو الآخر فقد اقترحت أن نحضر حسب اعتبارات الأقدمية : الجلسة الأولى - أحمد زكي يماني ، والثانية - محمد أبا الخيل ، وأحضر الثالثة . وهذا ما كان . عندما جاء دوري ذهبت وأنا أردّد أغنية أم كلثوم «هذه ليلتي»! . كان بقية أعضاء الوفد يبقون ساهرين حتى يعود العضو المناوب ليخبرهم بآخر أسرار الجلسات وآخر قصصها .

كنت أتأمل قادة العرب واحداً واحداً . ياسر عرفات ، بعد كل التجارب المريرة التي عصرته وعصرها ، لا يزال يلقي بالكلام على عواهنه ، لا زالت ألفاظه تسبق تفكيره . طالما تساءلت هل هذا أصلح إنسان لقيادة المقاومة الفلسطينية في هذه المرحلة الحرجة من تاريخها؟ الملك حسين كان كالعادة منطقياً منظّم الأفكار شمولي النظرة . صدّام حسين تمثيل بشري صادق للعنجهية والغرور . حافظ الأسد أكثر الزعماء

العرب قدرة على الشرح والإقناع . عبدالحليم خدّام بقية باقية من عهود صوت العرب وأحمد سعيد . الملك فهد لا يتكلّم إلا قليلاً وبحساب . زعماء الخليج كانوا صامتين طيلة الوقت . لعلّ شعارهم كان «من عوفي فليحمد الله!» . الملك الحسن لعب دوراً حاسماً في نجاح الدورة الثانية لا يقلّ عن دوره في نسف الدورة الأولى . استمرّ يستخدم سلطات الرئاسة بدون أدنى قدر من التردد . لو أن المؤتمر عقد في دولة ثورية وبرئاسة زعيم ثوري يستخدم حقوق الرئاسة كما يستخدمها الملك الحسن لما انتهى المؤتمر بالقرارات المعتدلة التي انتهى بها مؤتمر فاس . كان مسك الختام دعوة من الملك فهد لعقد الدورة القادمة في الرياض قوبلت بترحيب الجميع .

عدنا إلى ماربيا . كان الجو في الطائرة يختلف تماماً عن الجو خلال عودتنا الحزينة قبل عام . كان الملك بادي الانشراح .

ها قد ولد ، أخيراً ، وبعد مخاض عنيف مشروع عربي موحّد للسلام . ولكن هل استطاع العرب أن يحقّقوا شيئاً من خلال هذا المشروع . تلك قصّة أخرى ، تطول!

من مؤلفات الدكتور غازي عبدالرحمن القصيبي الصادرة عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر

* ورود على ضفائر سناء	شعر
* عقد من الحجارة	شعر
* سحيم	شعر
* قراءة في وجه لندن	شعر
* الأشج	شعر
* بيت	مختارات شعرية
* الإلمام بغزل الفقهاء الاعلام	مختارات شعرية
* أبو شلاخ البرمائي	رواية
* سلمى	رواية
* سعادة السفير	رواية
* مع ناجي ومعها	نقد
* الخليج يتحدث شعراً ونثراً	نقد
* الغزو الثقافي ومقالات أخرى	مقالات
* صوت من الخليج	مقالات
* الأسطورة (ديانا)	نص
* حياة في الإدارة	سيرة
* الوزير المرافق	سيرة
* التنمية الأسئلة الكبرى	بحث
* أمريكا والسعودية	فكر سياسي